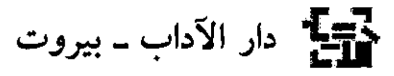

سامية عيسى
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
دار الآداب
حليب التين
رواية

سامية عيسى

حليب التّين

رواية


دار الآداب ـ بيروت

حليب التّين

سامية عيسى/ كاتبة فلسطينيّة

الطبعة الأولى عام 2010
ISBN 978-9953-89-158-3

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
ranaidriss@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

الرغبة في الصراخ راودتها مرارًا، لكنّها لم تجرؤ أن تسحب الغطاء عن حياتها وتخبر العالم كلّه. لطالما شعرت أنّها إن فعلت فستثير فضيحة كبرى لا تقوى هي نفسها على افتعالها، ومضت في المتاهة الكبرى تُحيك مع غيرها من سكّان المخيّم صورة أخرى من نسيج الكبرياء الجريحة، صورة حلم غطّى جرح النكبة الكبير وعارهم. اختبأوا وراء حلم العودة يرتقون شتاتهم، وهي فعلت معهم. تواطأت على حياتها ولم تنبس بكلمة لتقول لا لأيّ شيء. أسلمت أمرها، كما الكثيرات غيرها، لرجال العائلة أن يتدبّروا أمر ردّ الاعتبار، وصدّقت ووثقت وفعلت ما بوسعها كي تبدأ من جديد. لكن لا. صار نظرها يشحّ مع الوقت من كثرة ما بكت في السرّ، أو ربّما لشدّة ما حبست من دموع، أو حملت في داخلها من أسرار تخشى أن تنفضح، وهي تداري الأمور كي يمرّ وقت الانتظار بسلام.. لعلّ الوقت يأخذها ذات يوم إلى ما تحلم به أو يحلمونه جميعًا. لكنّ الأرض تبتعد ونظرها يشحّ وعاداتها السرِّيّة

في ممالأة الوقت والناس والرغبات لم تعد تعنيها. يدها تزداد ضيقًا، والمتاهة تتّسع وتنضاف إليها متاهات جديدة كلّ يوم. في بلاد العرب وفي اسكندينافيا وفي بلدان لم يسمع بها أحد من قبل. حتى الغطاء الذي تلحّفت وتلحّفوا به جميعًا تمزّق وبالكاد يستر عورة النكبة. نظرها يشحّ وبالكاد ترى ظلال الأشياء. لكنّها لا تأبه. لم تعد ترغب بالرؤية. بل تفضّل أن تصاب بالعمى. وهي اليوم تتساءل عن جدوى رتق الشتات أو الذنوب التي كبرت حتى طالت اتّجاهات العالم الأربعة.

صرنا ممسحة للجميع! هكذا فكّرت وهي تعلم أنّهم، أهل المخيّم، فكّروا مثلها. لكنّ أحدًا منهم لا يجرؤ أن يعترف بالذنب أو بحصّته منه. فضّلوا الصمت وإغلاق عيونهم عن الحقيقة. وبدل أن يمضوا في حياكة غطاء للفضيحة مزّقوا الغطاء لشدّة ما جذبوه، كلّ باتّجاهه ليخفوا عراءهم.

شحّ نظرها وما عادت ترغب بالرؤية.

ما الفائدة؟ سألت نفسها.

حزمت أمتعتها في حقيبة جلديّة ورحلت إلى شتات جديد. لكن هذه المرّة كان لديها الوقت لتنتعل حذاءها وتمضي. هذه المرّة لن تسكن الخيام. هذه المرّة لن ترفع صوتها لتطلب كيس الطحين من مركز الإعاشة. هذه المرّة لن تركب قطار المواشي إلى بيروت أو أيّة مدينة أخرى، ولن تكون لاجئة. لن تحتاج إلى إثبات هويّة، لأنّها هناك حيث تذهب سيمنحونها واحدة جديدة، شرط أن تنسى

من هي ومن كانت ذات يوم. أن تفقد ذاكرتها تمامًا ولا تقلق على شيء.

شخّ بصرها وامّحت كلّ الأسرار، وها هي الطائرة تحلّق بها إلى اسكنديناڤيا!!

هناك على متن الطائرة مضت تتذكّر كلّ شيء. نعم كلّ شيء. كأنّها فرصتها الأخيرة قبل أن تنسى.

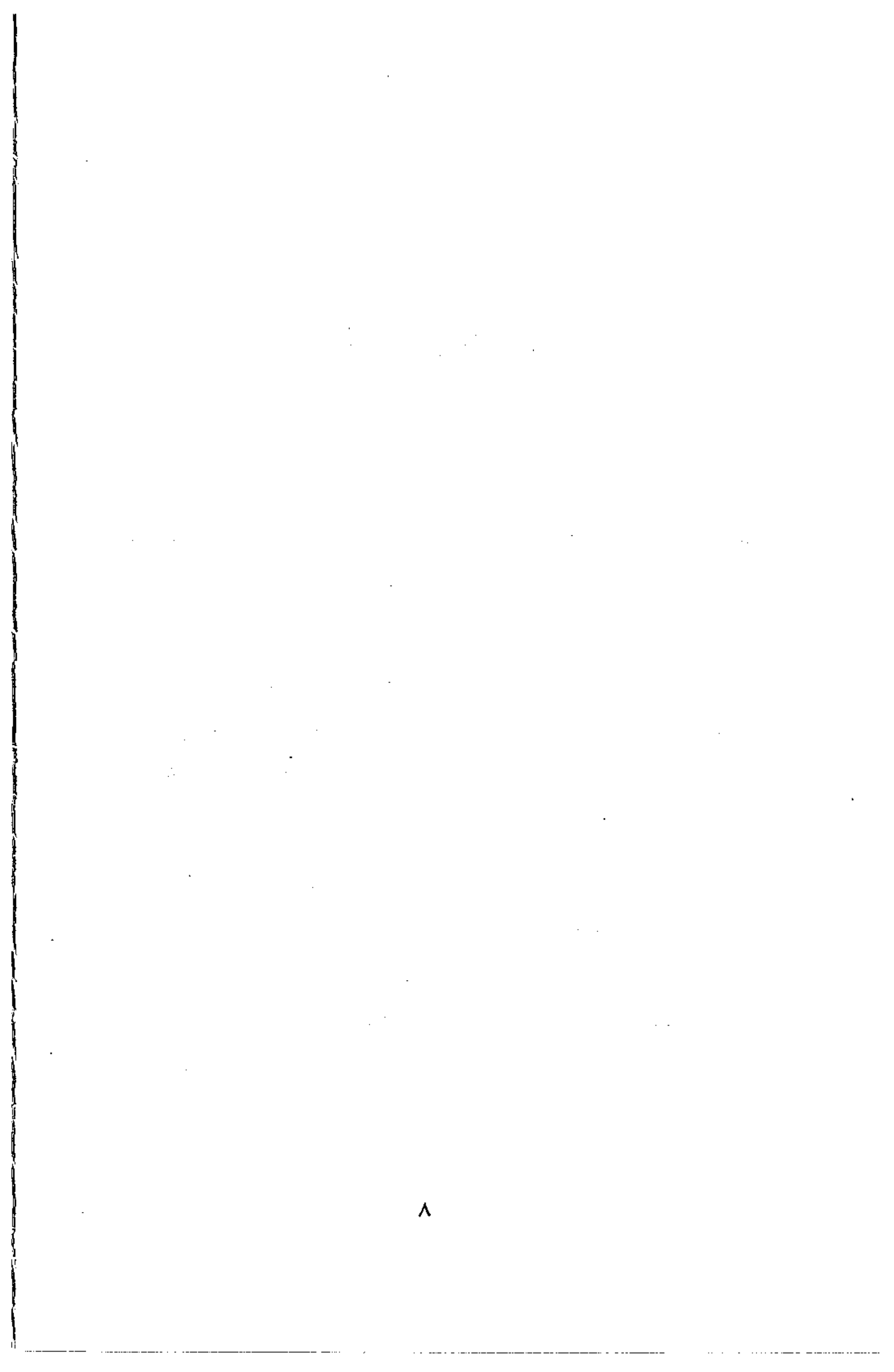
من أين تبدأ؟ من صمتها أم من ضجيج الشتات؟

من عمرها أم من الهباء؟

من حكايتها أم من وطن الحكايات؟

من نكبتها أم من نكبة الأبناء والأحفاد والشهداء؟

لا خيط يسعفها أن تمسك به أو يمسك بها. تركت نفسها تتداعى، واستسلمت للريح تحملها في الهزيع الأخير للنكبة الكبرى. ما لبث البرق الذي شقّ سماء الرحيل من نافذة الطائرة أن عاد بها إلى حيث تحاول أن تنسى أو تتذكّر!!



تزحزح القناع

كان ما يزال ممسكًا بعضوه حين سمع تأوّهاتها. ألمٌ يختلط باللذّة دفع رُكاد للإنصات. تأوّهات ترتفع وتخفت وترتفع لتخفت من جديد إلى أن. . انفلتت صرخة من عقالها.

لم يكن ركاد يعتقد، قبل تلك الليلة، بأنّ هناك في مكان ما في المخيّم من يجرؤ على خلع قناع النكبة. كان ركاد يختنق به ويفكّر في طريقة يستطيع أن يتحرّر منه، وبدل أن يفعل، كان يمضي في تجفيف ملامح وجهه، في تخشين صوته وجعله يبدو أكثر قسوة.

ـ القسوة لا تُقابل إلاّ بالقسوة. . . كي ننجو؟

هكذا كان ركاد يحدّث نفسه مذ أُخرج حافي القدمين ذات ليلة. يد أمسكته. لا يدري ولا يذكر إن كانت يد أمّه أم أخته الكبيرة، إذ كان يومها بالكاد يفرّق بينهما، وهو أصغر الأبناء العشرة ممّن وُلدوا في الغابسيّة[١].

---

(١) بلدة فلسطينيّة في الجليل.

على الطرف الآخر من الجدار، صوت يخلع قناع النكبة ويخترق قناع قسوته ويحيله أثيرًا يحاول التسلّل من الثقوب إليها.

ـ الثقوب!

خطر بباله على الفور أن يبحث عنها بين الثقوب.

ـ نعم. . . هناك ثقوب. كيف لم أنتبه لها من قبل مع أنّها منتشرة في جدران المخيّم. يقترب من أكبرها فإذ بصوت باب المرحاض على الطرف الآخر من الجدار يُفتح ويصدر صريرًا خفيفًا. ارتعد ركاد من فكرة أن تكون أحسّت بوجوده.

ـ الأفضل ألاّ أخرج الآن! أخشى أنّها عرفت بأنّني سمعت تأوّهاتها. فكّر.

ـ وماذا لو عرفت؟ تساءل!

ـ لا، لا. . . إذا عرفت أنّني عرفت عنها قد أضطرّ لفعل شيء وقد تتوقّف هي عن التأوّه في المرحاض!

ـ لكن متى أعرف أنّها ستتأوّه لأسمعها من جديد؟ يجب أن أعرف من هي وأراقبها.

ليس لأنّها كانت قد ابتعدت ولم يعد بمقدوره معرفة من هي، بل لأنّه خاف!

ـ خاف؟

ـ مِمّ؟

ـ لا أعرف. . .

ضرب الجدار بقبضته. . ثم، محدّثًا نفسه:

ـ أبله، أكثر من أبله. بل أحمق أيضًا، مِمّ تخاف؟

خرج من المرحاض وكان الخوف مِمّ؟ لا يعرف! يسربله، حتى كاد يقع على وجهه في المجرور الممتدّ وسط الزقاق.

ـ الله ستر!

ـ صه! كيف تذكر اسم الله في مكان مماثل؟!

ـ اسكت! اسكت! صرت تفكّر كالأطفال!

صار ركاد يحدّث نفسه ويتمتم بكلمات غير مفهومة، كمن أصابه مسّ.

وما إن خرج من المرحاض حتى التقى بزمرة من متسكّعي المخيّم، وكي لا ينتبهوا للاضطراب الذي يعتريه صرخ فيهم:

ـ ولك شو بتساوي بهالساعة؟ يلّلا كلّ واحد على بيتو.

هرع المتسكّعون الثلاثة إلى زقاق قريب، وهرولوا بعيدًا عن عينيه دون أن يدركوا سبب فظاظته. . . التي اعتادوا عليها مذ عرفوه.

كان على ركاد أن يحافظ على هيبته في المخيّم، فمنصبه كرئيس للّجنة الشعبيّة يحتّم عليه الحفاظ على قناع القسوة. لكنّه في تلك اللحظة شعر بالثقل فزفر زفرة ساخنة، وقال «أفّ»!

خرجت الـ «أفّ» من صدره المترع بروائح الأزقّة وتفاصيلها اليوميّة، فيما قدماه تنتقلان يمنة ويسرة، خشية أن تزلّ إحداهما في وسط المجرور الممتدّ على طول الزقاق وفي وسطه.

عاد ركاد إلى بيته أشبه بالمغشيّ عليه الذي أوقظ للتوّ. كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. لم يخش أن تلحظ زوجته حليمة شيئًا. فكّر:

ـ هي نائمة الآن!

تمتم وبدأ بفتح الباب، فصدر عنه صرير خافت. ارتعش على الفور ودقّ قلبه بعنف.

بكاء طفل تناهى إلى سمعه من مكان بعيد. أنصت أكثر.. وضع يده خلف أذنيه ليحدّد اتّجاه الصوت... لم يستطع. انتابته رعشة لاذعة. فكّر أنّه بردان، وكان قد أصبح على حافّة السرير، اندسّ تحت اللحاف وتدفّأ بحرارة جسد حليمة. تذكّر حينها الليالي العاصفة التي كحّلت عيون الناس في أوّل شتاء بعد النكبة. تذكّر كيف كان يندسّ بين جسدي شقيقتيه داخل خيمة مهدّدة بالانخلاع.

كان يندسّ فيدفأ وينام.

ولم يكد يندسّ قرب حليمة حتى بدأ بكاء الطفل في المكان البعيد يخفت رويدًا رويدًا، وركاد ينام أيضًا رويدًا رويدًا، وعضوه يقذف السائل الدافئ على غفلة منه رويدًا رويدًا.. ر و ي د ا ا!!!

فاطمة أيضًا عادت من المرحاض إلى بيتها تلك الليلة شبه

مخدّرة. اندسّت هي الأخرى في الفراش المحاذي قرب حفيديها ونامت. شعرت أنّها خفيفة. أحبّت خفّتها ونامت بسلام.

حين انفرطت عتمة الليل تسلّلت أشعّة الشمس من الثقوب. شعاع وحيد من الثقب المواجه لعيني فاطمة حثّها أن «استيقظي».

ـ أفّ! سأنام غدًا في الجهة الأخرى. قرّرت فجأة ثم.. «له»!

تذكّرت ما حدث لها الليلة الفائتة، فخامرها إحساس متلبّد وغريب لم تتمكّن من فهمه أو تجاهله. عاودتها خيالات الجسد المتحلّل من الثقل، والمتلبّس بالخفّة فانسابت روحها إلى الأسفل وخفق جسدها كلّه كأنّما تحوّل دفعة واحدة إلى قلب احتشد بالغبطة والخوف.

ابتسمت بحياء، مع أنّ أحدًا لم يرها أو حتى سيعرف إن رآها، أحد لن يعرف..

لماذا ابتسمت؟

ولماذا بحياء؟

فقط شريط يمتدّ من أصابعها ويتلمّس طريقه إلى الجسد البكر.

تملّكها الهياج وهي تستعيد تفاصيل الليلة الفائتة. كأنّما أصابعها المرتعشة الممتزجة باللهفة والفضول انسلّت وحدها تبحث عن متع هاربة كانت منذ قليل تطأ أنحاءها. كأنّما تخلّى جسدها تلك الليلة عن أن يظلّ كتلة من لحم وعظام.

تكاثف الشعاع مع خيالاتها المتعثّرة عبر الثقب المواجه لعينيها فيما تسلّل من الثقوب الأخرى شعاع هنا وآخر هناك إلى أن ازدحمت أرجاء الغرفة الضيّقة بالنور. حينها احتشدت ذاكرتها بالصور وبدأت تحدّث نفسها:

ـ لم أكن أقصد أن أفعل! طبعًا لم أكن أقصد! لو لم أشعر بالاختناق والضيق لما فككت أزرار فستاني...

وعبثًا حاولت طوال اليوم أن تبحث لنفسها عن أعذار لكن دون جدوى.. فهي لم تكن تدرك أو تفهم ما حدث. أيضًا لم تكن تعرف من أين تأتي تلك الموجات التي اجتاحتها فتدفّقت السخونة إلى وجهها واندفعت الآهات .الآه تلو الآه خافتة رقيقة. لم تكن تلك المرّة الأولى التي ترى جسدها أو تلمسه. كانت حيرى بين الاستسلام لمتعة داهمتها على غير توقّع ومعاودة المحاولة لاستعادتها، وبين إحساسها بالذنب ممّا تشعر! لكن ما كانت فاطمة متأكّدة منه هو أنّها لن تتحدّث بالأمر إلى أحد. لن تسأل.

كان حرصها على إخفاء ما شعرت به يعادل توق الجسد العارم إلى التحلّل والصعود والانصياع للهياج.

في تلك الليلة، لم تكن فاطمة تعرف أنّ في الطرف الآخر من الجدار رجلاً يسمع تأوّهاتها. لم تكن تعرف أنّها تتأوّه. تأوّهت وهي لا تعرف التأوّه. فكيف لها أن تحتاط؟ لم تعرف التأوّه إلاّ حين هوت يدها على عنقها تحاول أن تنتزع شيئًا ما يخنقها. لم تفلح. فهوت يدها الأخرى على أعلى صدرها... لم تفلح. كان

المرحاض معتمًا حين شقّ البرق عتمته وانفرج عن ثديين متدلّيين كقمرين أبيضين. شهقت حين رأتهما وكأنّما تفعل لأوّل مرّة. شهقت وكأنّهما لجسد آخر. لم تكد تصحو من دهشتها وافتتانها بقمريها الأبيضين حتى دوّى صوت الرعد، فسرت في الجسد المتّكئ على الجدار والمنحني فوق البالوعة قشعريرة، وكالمسحورة بدأت تبحث عن ثدييها في عتمة لا يبدّدها سوى صدى أصوات بعثرها صفق الرياح على سقوف البيوت وأبوابها.

يد تتلمّس عنقها والأخرى تعبث في منطقة الصدر تتلمّس الطريق إلى الثديين. وارتطمت أصابعها بحلمة ثديها صدفة، فشعرت أنّها صارت أخفّ، وانفتح شيء ما بين فخذيها..

(منذ تلك الليلة صار العالم يتّسع كلّما ذهبت فاطمة للتريّض).

كرّرت المحاولة. تركت أصابعها تقترب من الحلمة. هذه المرّة فعلتها عن قصد وشهقت بصوت خافت آآآآه... تسارعت شهقاتها، وبدأ رأسها ينتقل يمنة ويسرة، وبدأ صوتها يعلو وتأوّهاتها تصعد وتنزل، ويرتجف جسدها تحت وطأة الهياج بعنف ورقّة إلى أن ارتطم بالجدار. في تلك اللحظة سمعها ركاد وانتصب. حاول أن يقترب من الجدار فارتطمت قدمه بوعاء معدني. سمعت فاطمة صوت الارتطام فتوقّفت!

اعتراها الخوف للحظات. نظرت حولها، لم تر غير العتمة، ولم تشعر إلاّ بالشهوة تعصرها وتدفعها أن تابعي. لم تجد نفسها إلاّ وهي تعصر ثدييها بكلتا يديها، بينما أصابعها تبحث جائعة عن

الحلمتين. تحوّلت إلى طفلة وجسد تغريها غريزة البحث والاكتشاف والاستسلام لارتعاشات جسدها الممزوجة باللذّة والخوف، والرغبة في أن تجرّب وتتمادى في التجربة كي تصل إلى: لا تعرف أين.

رغم الخوف، أحبّت ما يحدث لها وظلّت تداعب نفسها طوال ساعة. تهدأ حينًا، تجرّب وضعيّة تلو أخرى، ما يلبث الخوف أن يبدّد لذّة تتصاعد وتيرتها ثم تخبو لتتصاعد مجدّدًا إلى أن شلّها الخوف تمامًا حين خطر لها أنّ ثمّة من قد تأتي وتفاجئها شبه عارية.

يا فضيحتي! قالت لنفسها!

توقّفت وقرّرت أن تعود غدًا في الموعد ذاته.

لم تصل فاطمة تلك الليلة، لأنّها لم تكن تعرف أنّ هناك محطّة وصول أخيرة.

زرّرت فستانها على عجل وفتحت الباب، فأصدر صريرًا خافتًا أرعبها وزاد من خوفها أن يُكتشف أمرها. خالجها الشكّ حينها بأنّ ثمّة من سمعها لكنّه سرعان ما توارى وسط أفكارها المتلاطمة.

حدّثت نفسها لتهدّئ من روع نفسها:

ـ ما بك؟ كأنّك تسمعين الصرير لأوّل مرّة.

أسرعت الخطى ومضت إلى البيت تستبدّ بها رغبة عارمة في الانعتاق، في الانفلات، في فرد ذراعيها والدوران إلى ما لا نهاية.

حين تسلّل الشعاع من الثقب إلى عينيها في الصباح، اشتعلت ذاكرتها طوال النهار بالصور، وعاودتها الأحاسيس اللذيذة. وما إن حلّ المساء حتى سارعت في الذهاب إلى التريّض الليلي الأخير تستحوذها الرغبة في استعادة تلك الأحاسيس. لم تكن تعرف فاطمة في تلك الليلة أنّ التجربة ستأخذها بعيدًا أكثر ممّا يمكن لها أن تتخيّل أو ترغب. لم تكن تعرف أنّها ترغب، أو أنّ الجسد المحاصر بالتفاصيل سوف يدور بها وفق إيقاع سيأخذها في دورة النزول والصعود والتمدّد والانتشار والتبدّد، ويغمر روحها إلى ما تبقّى من عمرها. لم تكن تعرف أنّها ستكتشف سرّ حياة لم تعشها، لأنّها لم تكن تعرف بوجودها أو ربّما اختفت تحت غبار التفاصيل. وستشعر منذ ذلك الاكتشاف العظيم بطعم آخر للنكبة، ملوّن وحيّ.

على الطرف الآخر من الجدار سيبدأ ركاد مشواره في الاكتشاف.

كلّ منهما على حدة سيكتشف نفسه ويتعرّف إلى الآخر.

آخر لا يعرفه، ولا يمكن له اختراق الجدار والوصول إليه.

هي وهو والجدار. كلّ على حدة:

- اشتعلا معًا. تبدّدا معًا. وتجمّعا وتبدّدا مرّات ومرّات. داخل الوقت وخارجه. وحين وصلا، وصلا معًا. كلّ بمفرده. تأوّه بآهات خافتة أفلتت من دهشة الجسد المستعاد.

ذلك المساء، وصلت فاطمة، وتملّت في الوصول.

كان مساء غريبًا، محاطًا بضوضاء الخوف والرغبات. انبسطت من دون أن تعي كنه الانبساط، أو كيف أتى. أخذتها الرغبة في الاسترخاء بين ظلال النشوة. لكنّ المرحاض ضيّق، وأرضيّته مغطّاة بأكوام الخراء. حين فتحت عينيها كانت كأنّما تراها لأوّل مرّة. كأنّما ما زكمت الرائحة أنفها قطّ من قبل. كأنّما...

لملمت نفسها وخرجت مسرعة قبل أن يتمكّن ركاد من أن يفعل أو يفكّر في أن يفعل.

شهران مضيا وركاد يواظب على حجز المرحاض في وقت يسبق حضورها. لم يكن مستعدًّا للمغامرة والمجيء بعدها كي لا يتأخّر على تأوّهاتها وليتأكّد من أنّ أحدًا غيره لن يسمعها ويسرق منه ذاك الصوت الذي ما إن يبدأ بالتأوّه حتى تميد الأرض به وينفجر مع صرخاتها ساخنًا لزجًا وغزيرًا.

ذات ليلة، جاء ركاد مبكرًا كعادته فوجد شخصًا يشغل المرحاض. انتظره فتأخّر، خاف ركاد، و بدأ يدقّ الباب بعنف كمن يستعجله. أجاب الصوت من الداخل: «ثقيلة. ثقيلة. طوّل بالك شوي».

كأنّه لم يسمع، عاد ليدقّ بعنف ازداد مع ضربات قلبه المتسارعة.

خرج الرجل من المرحاض المعتم وهو يتأفّف من غلاظة الطارق وحين رآه قال:

ـ «هذا أنت؟» ولو شو صايرلك، انطرلك شويّ. ما فيك تحشرها؟ شو هيّي نياكة. . . ؟

حين لفظ أبو علي الجملة الأخيرة، ارتبك ركاد على غير عادته كمن ضبط متلبّسًا.

استغرب أبو عليّ الاحمرار الذي اعترى وجهه وظنّ أنّه محشور فعلاً. كان من عادة ركاد أن يظهر رابط الجأش أمام الناس، وكان يقول لنفسه دائمًا: «طبعًا! المركز بيفرض عليّ القناع ولازم أعرف أمثّل الدور منيح! . .

أنا مسؤول. لازم يخافوا منّي ويحسبولي حساب».

في تلك الليلة شعر ركاد أنّ القناع تزحزح من مكانه، وتساءل: «ماذا قصد أبو عليّ حين قال «نياكة»؟ هل يعرف القصّة»؟

الهواجس كانت تتلاحق في رأسه وتجري بعضُها خلف بعضها الآخر، وضربات قلبه تتدافع تحت سيل الشكوك، حين دعس ركاد في كومة خراء.

كان طازجًا ورائحته تستولي على المكان. فصرخ قائلاً:

ـ أفّ عليك يا أبو عليّ. ولك شو آكل فاصوليا؟

صرخ بصوت عال علّ أبو عليّ يسمعه وينشغل بخجله من البراز الذي تركه خلفه على الحافّة الخارجيّة لموقع القدم.

فتح ركاد الحنفيّة ليغسل قدمه بسرعة قبل أن تحضر صاحبة

الصوت الأثيري فلم تنزل المياه. وقبل أن يفكّر ركاد بحلّ كان الباب الآخر لمرحاض النساء العمومي ينفتح ويصدر الصرير الموعود.

نسي الخراء والماء وأبو عليّ و... أنصت!

* * *

ظلّ أبو عليّ بعد تلك الليلة يتساءل في نفسه عمّا أتى بركاد إلى مرحاض مخيّم أوزو، وهو يسكن في مخيّم عين الحلوة في بيت من طابقين، ولديه مرحاض في كلّ طابق. دفعه الفضول لمراقبة ركاد كلّما لمحه في أوزو. الأغرب أنّ ركاد صار لا يأتي إلى أوزو إلاّ ليقضي حاجته. ظنّ أبو علي بدايةً أنّ به مسًّا من جنون أو عقدة نفسيّة، لكن لفت نظره التزامن المتكرّر بين مجيء ركاد ودخوله إلى المرحاض وحضور فاطمة زوجة المرحوم خليل. في البداية لم يلحظ العلاقة بين «الحضورين» وظنّها صدفة.

كان أبو عليّ طيّب القلب ليشكّ بأمر مريب، لا سيّما بشأن فاطمة. المرأة الأكثر طيبة إلى حدود البلاهة. بعد مرور أسبوعين على التقائه بركاد، مرّ من غير تعمّد بقرب المرحاض العمومي للمخيّم، ولم يكن قد لاحظ دخول أيّ منهما إليه، واتّكأ على جداره كي يتجنّب الوقوع في المجرور الممتدّ وسط الزقاق، فسمع صوت امرأة تئنّ. ظنّ في البداية أنّ ثمّة من تتوجّع من ألم في بطنها أو «لسبب آخر». لكن سرعان ما صار أنينها يشبه تأوّهات آمال وهي تنتشي بالشهوة. شهوة جامحة جعلته يطلّقها لأنّه لم يعد

يشعر أنّه يشبعها. لم يعد ماؤه يكفيها فخاف على نفسه من غدر الشهوة وطلّقها. ولمّا فكّر أنّه لا بدّ من إشباعها ظهر شبح رجل آخر كان يشعر به كظلّ يتاخمها في السرير. لم يحاول أن يتأكّد بداية، ولكن حين صار يراقبها اكتشف أنّها تقابل أحدهم في مرحاض المخيّم. كانت تذهب إلى مرحاض الرجال ليلاً وتتأوّه داخله. لكنّ ذاك الصوت كان يأتي من مرحاض النساء! فكّر أبو عليّ..

انتظر ليرى إن كان ثمّة رجل سيخرج قبل المرأة أو بعدها، فلم!

خرجت فاطمة وحدها ولم يستطع من شدّة العتمة تبيّن من تكون، وحين هَمّ باللحاق بها فوجئ بركاد يخرج من الباب الآخر ووجهه شديد الاحمرار تحت ضوء بدر ذاك المساء.

كيف؟ هل يعقل؟ سأل نفسه، ومضى به السؤال بعيدًا. اتّسعت مخيّلته بعدما أثارته التأوّهات وهو الذي لم ينم مع امرأة منذ عام.

قرّر أن يأتي في الليلة التالية ويحتلّ المرحاض قبل مجيء ركاد. جاء قبل موعد محتمل لتريّض فاطمة وركاد بربع ساعة. كما توقّع، دُقّ باب المرحاض بعد ربع ساعة بالضبط. لم يردّ ولم ينبس أو يتفوّه بكلمة. اشتدّ الضرب على الباب وعَنُف، وعلا صوت ركاد يطلب إليه الخروج!! كلّما اشتدّت الضربات على الباب كان أبو عليّ يرتعش من الخوف حتى خُيّل إليه أنّ ركاد سوف يخلع الباب ويقتلعه من مكانه. لكن ما هي إلاّ خمس دقائق أحسّها ساعة

حتى سمع وقع خطوات ركاد تبتعد بسرعة فيما خطوات أخرى تقترب ناعمة متثاقلة، وتفتح الباب على الضفّة الأخرى للمرحاض المخصّص للنساء. ورغم الحذر، لم يسعفها التمهّل أو البطء في فتح الباب في تجنّب الصرير. ما هي إلاّ دقائق حتى بدأت همهمات فاطمة تعلو وتخبو وتتحوّل إلى آهات تتسلّل عبر ثقوب الجدار، وتشعل في جسد أبو عليّ نيران الشهوة.

ـ ماذا تفعل؟ سأل نفسه.

كتم أنفاسه وأصاخ السمع. على الطرف الآخر من الجدار بدأت فاطمة تخلع ثيابها قطعة قطعة وتتلمّس جسدها بلهفة الجائع. كانت قد أتت في الصباح ودقّت مسمارًا في الجدار كي تتمكّن من تعليق ثيابها عليه. جاءت في وضح النهار ودقّت المسمار وسط الضجيج كي لا يسمعها أحد. قرّرت أن تمضي الليلة في مضاجعة نفسها حتى الصباح.

أحضرت شمعة أشعلتها بعود ثقاب كي تتمكّن من رؤية قمريها الأبيضين وتلك المناطق التي ما إن تلمسها حتى تتحوّل إلى ريشة تترنّح في فضاء اللذّة والعدم.

كانت تناهز الخامسة والأربعين من عمرها. رغم ذلك ظلّت منحنيات جسدها مشدودة، وجلدها يلمع بلون العاج. تفقّدت تضاريسها واحدًا تلو الآخر. البطن والفخذين والخصر والذراعين والثديين. كأنّهما لجسد لم تمسسه يد رجل. جسد بكر، لم تنل منه السنوات أو حمل تكرّر خمس مرّات.

وبدأت.. يداها تتلمّسان بطنها المتكوّر عند محيط السرّة، وعيناها تتأمّلان المنحنيات البضّة. سرت في جسدها قشعريرة جعلتها تسترخي وتبحث عن موضع تستند إليه. التصقت بالجدار الذي يفصلها عن أبو عليّ. وتابعت. تلمّست الفخذين وأخذت أناملها تزحف صعودًا إلى خصرها، بطنها، ذراعيها، ثدييها. جنّت من الهياج وشعرت أنّها تصعد وتهوي في آن معًا، وشيء ما بين الفخذين ينقبض ويتّسع ليعود وينقبض ويدفع أصابعها إلى ما بين الفخذين. انهمر الماء غزيرًا على جوانب فخذيها فتحسّست مصدر الماء فإذا بالسخونة تباغتها وتغريها بالتوغّل إلى الأعمق. علت تأوّهاتها وتهدّج صوتها بالشهوة والانتظار.

ماذا بعد؟ سألت نفسها خائفة.

إلى أين تمضي، وهل ثمّة من مزيد؟ لم تدر فاطمة كيف بدأت أصابعها تعبث وسط الكوّة الملتهبة، فيما بدأت أنفاسها تتقطّع وتتصاعد، وجسدها يلهث وراء لذّة، تتسارع ارتعاشاتها وتمضي بها إلى سماء الامّحاء، وحين وصلت لم تستطع أن تكتم صرختها. باغتتها الصرخة؛ صرخة أشبه بالعواء في العراء، شعرت كأنّها في جوف العدم، عند الخطّ الفاصل ما بين الحياة والموت. أحسّت كأنّما تموت وتولد في آن.

تبخّر الماضي والحاضر والمستقبل، وحلّق جسدها إلى فضاء التلاشي.

انفجرت مياه أبو علي على وقع صرختها وكاد يغيب عن

الوعي من قوّة ضغطه على فمه كي يكتم صرخته. وكي لا يفقد وعيه استند إلى الجدار ونظر من ثقب في وسطه فرأى وجه فاطمة مكحّلاً برائحة النشوة. انسحب الحزن عن ملامحها ورقّت قسماتها كأنّها طفلة وُلدت للتوّ. عيناها مغلقتان على الدهشة، وعلى شفتيها ابتسامة رخوة واعتلى خدّيها اكتفاء رضيع في لحظة الشبع. تمنّى لو تمكّن من كسر الجدار والدخول إليها ليضمّها بين ذراعيه وينام.

استمرّ ينظر إليها ويتمتّع بالوجه الطفولي المتلبّس بالنشوة إلى أن أفاق الوجه وتمكّن الجسد من الانتصاب على مضض. ارتدت ملابسها وهي شبه سكرى.

ـ فاطمة! غير معقول! همس أبو عليّ لنفسه غير مصدّق.

ـ وأنا من كنت أعتقدها ساذجة! استدرك أبو علي.

أسرع إلى أكرة الباب بانتظار أن تخرج ليفاجئها ويفضح سرّه وسرّها معًا. وما إن انطلق صرير الباب حتى خرج أبو عليّ إليها، فالتقت عيناه بعينيها وفهمت. أطرقت بكلّ الحياء الممكن في هذا العالم ومضت بصمت تتعثّر خطواتها وهي تسرع إلى البيت، تستعيد نظرة أبو عليّ فيهوي قلبها بين أضلعها وتجتاحها أحاسيس فيّاضة تختلط بالحياء، وتذيب ما تبقّى من جسدها المتلاشي.

مضت فاطمة تجترّ أحداث ذلك المساء في خوف وقلق من الفضيحة المحتملة. كانت تخشى أن يطيل لسانه عليها فتلوكها الألسن في المخيّم الضيّق المتعطّش للأقاويل. لكنّ شيئًا ما هدّأ من روعها.

ليس من عادة أبو عليّ أن يتكلّم عن أحد، في الجيّد والسيّئ على السواء. حدّثت نفسها، وهي تتذكّر كيف أفحمه ذات يوم أبو جميل البقّال في نميمة عن جارتهم سعاد تتعلّق بسمعتها. صرخ يومها أبو عليّ: عيب يا أبو جميل. الله يستر على بنات الناس. اللي بيستر الله بيستر عليه. حرام عليك عندك بنات!

تذكّرت كلماته واطمأنّت. ثم ما لبثت أن تذكّرت الطريقة التي نظر فيها إلى عينيها. عندها ندمت وتمنّت لو أنّها توقّفت لتمعن النظر في عينيه.

رغم سنواته الخمسين، ما زالت عينا أبو عليّ تطلق وميضًا يشبه البرق بسرعة انخطافه. ورغم ضيق حاله، كان أبو علي محطّ ارتياح العديد من أهالي المخيّم، لا سيّما النساء الوحيدات اللواتي كنّ يكدحن ليل نهار لإعالة أطفالهنّ بعد أن فقدن المعيل. رغم بساطة ملبسه ووضاعة حياته، كان يُطلق الحِكَم والأمثال، ولطالما كان يردّد عند كلّ خلاف يحدث في المخيّم:

«وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم»

عندها كان يتوقّف الجميع عن الشجار حرجًا من بلاغة ما يقول!

في الأيّام التي تلت لقاءها بأبو عليّ، ظلّ الهياج يداهم جسد فاطمة، ويجتاح روحها كلّما وقعت عيناها عليه أو فكّرت به.

(هل لأنّه كشف أمرها، أم لأنّها كانت ما تزال تحت تأثير ما

حدث لها في تلك الليلة؟) فكّرت فاطمة وظلّ قلبها يدقّ من الخوف ومن الأسئلة. في العادة، كانت أسئلة فاطمة تشبه سحبًا تعبر سريعًا في العقل والروح معًا، وتتبدّد كأنّها ما عبرت، كأنّها ما كانت أبدًا، ولا يبقى منها غير إغواء السؤال نفسه حين يطرح نفسه ولا يبحث عن جواب. كأنّما يولد السؤال من غير غاية. كأنّما يولد من غير أن يتمكّن شيء من إيقافه. كانت قد وصلت أمام عتبة بيتها تلك الليلة حين داهمها سؤال أيقظ الحياء والفرح في قلبها حين تداعت صورة اللقاء المباغت، مرّة تلو مرّة بلا انقطاع.

ـ أهو الخجل؟

لا. وإلاّ لماذا أرغب بالعودة إلى المرحاض علّه ما زال هناك؟

حدّثت فاطمة نفسها وشعرت بإحساس غريب لم تجرّبه من قبل. إحساس استحوذ عليها وألحّ بالسؤال طوال تلك الليلة:

ـ أهو الحبّ من أوّل نظرة الذي يتحدّثون عنه في الأفلام؟ ليته كذلك.

ولأنّ السؤال استقرّ في داخلها، ولم يعبر سريعًا أو يتبدّد كما كان من عادة أسئلتها أن تفعل، شعرت فاطمة لأوّل مرّة بأنّ شيئًا ما سوف يحدث لها. لأوّل مرّة وعت ولمست سؤالها. لم يأت على شكل سحابة تتقاذفها رياح التفاصيل، بل أومض من عيني أبو عليّ وعبر إلى روحها وتفتّح في جسدها ليسكنه فخفق قلبها وواصل الخفقان حتى ساعات الفجر الأولى.

ـ لكن أين؟ من أين بدأ السؤال؟ من عينيه أم من رتابة القلب أم لهفة الروح إلى التألّق؟ فكّرت فاطمة وشعرت أنّها كبرت قليلاً.

ـ شعرت أنّها صارت أمرأة يؤرجحها الشوق وتتلبّسها الغواية، وإن لم تدرك من أين يأتي هذا الشعور، وإن ظلّت السذاجة تملّح روحها كرفيقة دائمة عصيّة على التفتّح، وسرعان ما انتابتها رغبة عارمة في خوض تجربة الحبّ مع أبو عليّ، من دون أن تتورّط معه علنًا ومن دون أن يعرف هو بمشاعرها!

ولأنّها دخلت صدفة إلى معترك التجارب فلِمَ لا تمضي بعيدًا في خطاها؟ هكذا فكّرت وهي تفتح باب البيت وعقلها مشوّش برغبات عديدة تتقاذفها.

دخلت فوجدت أحفادها على فراشهم، متشابكين وقد ألقوا جميعهم بالغطاء بعيدًا.

تناولت فاطمة الغطاء وفردته على الأجساد الطريّة وسرحت في ماضيها السحيق تبحث عن لحظة هناء تتذكّرها أو برهة سعادة أحسّت بها.

لا. لم تتذكّر. أتراها نسيتها في غمرة التفاصيل؟ لا. وإلاّ كيف تتذكّر كيف كان زوجها يطبق يده على فمها وهو يسدّ الكوّة ما بين فخذيها بعضوه؟ لم تشعر يومًا أنّ تلك الكوّة ستمنحها إحساسًا بالتلاشي.. لذيذًا، متوحّشًا، وناعمًا.

الليلة شعرت أنّ أسئلتها كبرت قليلاً وكبرت هي معها. شعرت

أنّ العالم كان ساكنًا وأنّه ما كان يدور إلاّ ليطحنها.

الليلة بدأت تشعر أنّ العالم صار يدور في داخلها، ويدفعها إلى سماوات تحلّق فيها إلى ما لا نهاية. تسرح في ماضيها البعيد فلا تتذكّر إلاّ زهور الحديقة المحيطة ببيت والديها في صفد. لماذا تتذكّر الحديقة وبلدتها البعيدة الآن؟ أتراها استفاقت من غيبوبتها، أم عادت إلى عبق الطفولة؟ تذكّرت فاطمة رائحة الورد. كانت والدتها تعشق الورد الجوري الأحمر، وتحرص أن تحيطه بزنبق أبيض. ما إن يأتي المساء حتى تفوح الحديقة برائحة أخّاذة كانت تثلج صدر طفلة الخمس سنوات، وتشعرها بنشوة تبعث البهجة في نفسها.

لم تشعر فاطمة بمثل هذه البهجة منذ لا تعرف متى!

حين أخذها جسدها إلى لحظة التلاشي وتلاقت عيناها بعيني أبو عليّ، تداعى مشهد زوجها وهو يطبق يده على فمها «ويدحش» عضوه في فرجها كلّما أراد مضاجعتها، من غير أن ينظر قطّ بعينيها. كان يفعل كمن يسدّ العالم في وجهها ويضغط على أنفاسها، كمن يكتم فيها حياة يحتمل أن تنطلق من كوّتها، ولم تفعل. لأوّل مرّة ينظر أحد في عينيها ويتملّى بالنظر.

ذهب أبو عليّ هو أيضًا إلى بيته، وطعم النشوة عالق في حلقه. ليس لأنّها وصلت وتفجّرت آهاتها في مسامّ روحه، بل من خضرة عينيها الناعستين. شعر كأنّما الاخضرار اجتاح جسده كلّه حين التقت عيناه بعينيها. أشبه بربيع عاد من جديد. كان يسكن على مقربة من بيت فاطمة. يلتقيها كلّ صباح وهي تجلس على عتبة

الباب أو تقرفص قبالة حنفيّة المياه المحاذية لبيتها. كان يشاهدها دومًا لكن كأنّه لم يرها أبدًا. عاد إلى بيته لكنّه لم يعد وحيدًا هذه المرّة. فكّر!

فجأة أحسّ أنّ فاطمة ستحتلّ المساحة كلّها وتبدّد وحشة البيت الفارغ بظلالها. رتّب فراشه المبعثر ونام عميقًا كما لم يفعل منذ... لا يعرف متى: هو أيضًا!

أفاق في الصباح على أصوات الصغار يلعبون في أزقّة المخيّم وما إن أفاق حتى تذكّر!

فاطمة! همس في نفسه وهرع ليراها قبل أن تخرج إلى السوق أو أيّ مكان آخر. دقّ قلبه بعنف، إذ تذكّر وجهها الملوّح بالنشوة. دقّ أكثر حين تذكّر عينيها الناعستين. صفن قليلاً، وشرع في وضع خطّة للتحدّث إليها. داهمته مشاعر جامحة ودبّت الحياة في عروقه.

لم يعد قادرًا على هدر ما تبقّى من عمره في الوحدة والجفاف. فكّر! فتداعت فاطمة في تفكيره كالرائحة.

فتح باب البيت، وما إن وضع قدمه في الخارج حتى لمحها تأتي من بعيد وهي تحمل أكياس الخضار. كانت الحياة ترتسم على ملامحها هي أيضًا مع أنّها بالكاد نامت. ما إن رأته حتى ظلّلت شفتيها بسمة خاطفة، سرعان ما ضمّتهما واتّخذت هيئة رصينة.

بدأت تلعب لعبة الحبّ. هكذا شعر أبو عليّ أو أراد.

تسلّل الخبث من عينيها على شكل بريق يشعّ ويتوارى إلى أن

يشعّ من جديد ويتوارى ثانية. فهم الرسالة. صحيح أنّه قد مضى عام لم يضاجع فيه امرأة، وصحيح أنّ سنوات جافّة وفارغة مرّت من عمره كشراع في مهبّ الريح، لكنّه ما زال بإمكانه أن يحسّ بالعذوبة حين تعبر بقربه. فكّر في حجّة للتحدّث إليها، سار في الزاروب باتّجاهها وهو ينظر مباشرةً في عينيها، غير عابئ بالنساء اللواتي تجمّعن على مقربة من نهاية الزاروب. ارتبكت فاطمة وتلعثمت ووقع كيس البندورة من يدها فتبعثرت الحبّات على الأرض. أسرع أبو علي للمّها وقرفص وهو يأخذ الكيس من يدها.

«هاتي عنّك». قال.

وصار كلّما وضع حبّة في الكيس اختلس نظرة من عينيها كي لا يلحظه أحد.

لم تألف فاطمة أن تعيش حياة تشبه الأفلام أو الدعايات. هكذا شعرت أنّها تفعل الآن!

ارتبط لسانها ولم تستطع الاعتراض. لم تبتسم له مع أنّها رغبت أن تفعل.. لم تجرؤ... حملت كيس البندورة ومضت صامتة إلى بيتها.

كانت قدماها ترتعشان، وبالكاد استطاعتا حملها، وبالكاد استطاعت هي حمل كيس البندورة والوصول إلى البيت.

شعرت بالغرفة تدور بها فوضعت الكيس على الأرض واستندت إلى الحائط.

سألت نفسها:

ـ ماذا يحدث؟ وماذا يريد أبو عليّ منّي؟ هل يعرف ما أفعله في المرحاض؟ طبعًا يعرف! رأيت ذلك في عينيه. لماذا تعمّد النظر إليّ بهذه الطريقة ليلة أمس لحظة خروجي من المرحاض؟ واليوم يختلس نظرة تلو أخرى، غير عابئ بأحد.

أعجبتها جرأته، وأرعبتها، وإن لم تبد أيّة ممانعة من ناحيتها.

ازداد رعبها من شيء أحسّت أنّه يتسلّل إليها كنهر جارف. شيء جميل لا تعرف ما هو. شيء ربّما هو الحبّ. شيء أدخل الغبطة إلى قلبها وملأها بالخفّة كأنّها تطير، تحلّق، تدور، تفرد ذراعيها. ساعة مرّت وهي تسترجع ما حدث في الليلة الفائتة وحتى لحظة التقاط حبّات البندورة.

راحت تدور في الغرفة كأنّها ماء يغلي في مرجل، للحظات فكّرت أنّها جُنّت. حمدت الله أنّ أحفادها ما زالوا في المدرسة. وصارت تخاطب نفسها: «ما بي؟ منذ شهرين وأنا أشعر براحة وانتعاش لم أجرّبهما من قبل. صحيح أنّي مغتاظة لأنّي لم أحاول سابقًا. لم أكن أعرف. لم يخبرني أحد. ربّما هم لا يعرفون. واليوم يحدث لي شيء آخر. قوي ومختلف يدفعني للارتماء في حضن أبو عليّ. أهو الحبّ؟ في هذا العمر وبعد كلّ هذه الحياة والسنوات؟ لا بدّ أنّني فقدت عقلي. الحبّ أحسست به. شعرته في داخلي. لكن لم أستطع. هل لأنّ... لا أحد».

صارت فاطمة تتحدّث وتدور حول نفسها وداخل الغرفة تحاول

أن تفهم، لا تجرؤ على التحدّث مع نفسها عمّا يجري لها أو في داخلها. تطرد أفكارها وتلجأ إلى غسل الصحون تارة وكنس الغرفة تارة أخرى، فتنجح حينًا وتفشل أحيانًا، وصارت بمجرّد أن تفكّر يلفّها الحياء، والخوف! لا تعرف مِمَّ! الخوف من الحبّ أم من الحاجة إليه؟ أم ممّا سيقوله أهل المخيّم لو اكتشف أحد أمرها.

ـ يجب أن تُبقي شؤون المرحاض سرِّيّة. فكّرت.

كانت مخاوفها تتكاثف إلى الحدّ الذي لم تعد قادرة معه على احتمال الشعور. الشعور بالحبّ أو الخوف منه: سيّان! شيء ما يفيض عن جسدها.. شيء يختلف عن هيجان الجسد لحظة انبهاره في المرحاض لأوّل مرّة. شعور لم تنم بسببه البارحة. مذ التقت عيناها بعيني أبو عليّ غمرها خوف فرح لا تقوى على جمعه. لا يحثّها للذهاب إلى المرحاض، بل للخروج والتبعثر في الفضاء. شيء لا تقوى على كتمانه داخل جدران أربعة، ولا تجرؤ على البوح به أو الإفصاح عنه، رغم أنّه يُفصح عن نفسه، يفيض خارج الجسد والجدران وزواريب المخيّم. نعم شيء يحلّق بها، تشعر به ولا تفهمه.

فكّرت عبثًا لو أنّها تستطيع أن تعيش ما تشعر به كشيء سرّي.. كعادة سرِّيّة.. كتلك العادة السرِّيّة التي تحدّثوا عنها بالراديو ليل أمس. يا لها من مصادفة. كتلك العادة التي صارت تمارسها منذ وقعت عيناها على ثدييها المكوّرين يتدلّيان كرمّانتين شهيّتين. ومن غير أن تعي ما تبحث عنه، قفز سؤال غريب غائم لا

ملامح له أشبه بالجواب: عادة سرّيّة للقلب؟ نعم! قالت لنفسها. لِمَ لا؟ سألت وأجابت في الوقت ذاته.

هل يمكن لهذا القلب أن يستمتع ويحلّق ويهوي وينطلق كما يفعل الآن من غير أن يعرف أحد؟ عادة سرّيّة على مستوى القلب تجترّ الحبّ الذي يسكنها كما تجترّ جسدها من غير أن يلمسها أحد أو حتى يتحدّث إليها بالغرام؟ كيف؟ كيف دون أن أحبّ أحدًا محدّدًا؟ تساءلت من غير أن تعي السؤال أو تحدّده. كان السؤال يأتيها على شكل ومضات يفجّر سذاجتها دون أن تلتقط أطرافه، أو تتمكّن من صياغته.

ومثل وميض برق أضاءت عتمة روح أُغرقت في غيبوبة الذات والآخر، استفاقت فاطمة فجأة على السؤال، وتذكّرت كيف كانت تضمّ ذراعيها أحدهما حول الآخر وتتقوقع على نفسها حين تشعر بحاجتها للحبّ، لكنّها لم تكتف يومًا! لم تجرؤ أن تحبّ.. بل لم تجرؤ أن تتخيّل أنّها تفعل مع أحد تعرفه أو تلتقيه صدفة لتصبّ عليه العَذوبة التي تسكنها.

لم تعرف فاطمة الحبّ قبل الآن كما يعرفه الناس. كانت ممتلئة به وهو مقيّد باللا.. التي لا تعرف من لقّنها إيّاها. وهكذا قضت عمرها وحيدة تسير مطأطئة الرأس لا تشعر بنفسها ولا بجسدها، ولا تنظر إلى أحد. لطالما أحسّت أنّ هناك شيئًا ما ينقصها. يوم اكتشفت جسدها داخل المرحاض.. وشعرت بالامتلاء والخفّة، أحسّت بالبلاهة أيضًا. لكن مع الوقت لا.. لم

تعد المتعة الجسديّة وحدها تكفيها. كان هنالك شيء ما ينقصها، ربّما..؟ تساءلت ثم أجابت: لا ليس الحبّ. ليس الحبّ ما ينقصني؛ بل الشخص الذي أمنحه إيّاه. وضعت يدها على قلبها وأكملت: «أحسّ دائمًا أنّ لديّ قدرًا كبيرًا منه، لكن لم أعرف يومًا كيف أعبّر عنه. لمن؟ مع من؟ وأين؟». وحين عبرت «أين» أفكارها نظرت حولها وكأنّها ترى بؤس العالم كلّه لأوّل مرّة. لم تفهم لماذا أُصيبت بالانقباض والاستحالة.

«صرت أستطيع أن أتحكّم بجسدي، لكن ماذا أفعل بروحي»؟ فكّرت فاطمة.

تستطيع فاطمة أن تذهب إلى المرحاض وتمارس عادتها السرّيّة الجديدة. تلعق جسدها ما شاء لها أن تفعل وتنتشي. لكن كيف تستطيع أن تروي حاجتها للحبّ في غياب الآخر.

فكّرت فاطمة مجدّدًا: «الحبّ يتطلّب آخر! الحبّ يعني أن يحضنك الحبيب. أن أحضنه وأنظر في عينيه وأضع رأسي على كتفه، وأترك لروحي أن تحلّق مع روحه.. لكن مَنْ؟ أبو عليّ! يا للفضيحة! لا. لا. لا يمكن، لا! أبو عليّ لا!».

- التخيّل مجدّدًا! قرّرت فاطمة، وسرحت في خيالات الماضي البعيد تجترّها مجدّدًا. لم تنفع التخيّلات. ظلّ أبو عليّ يعود ويعود ليقتحم أفكارها ويبدّد أيّة محاولة للهروب من الحاضر الذي باغتها عنوة وعلى غير تخطيط.

تذكّرت فاطمة، في غمرة سرحانها، كلّ القهر الذي عانته

مرارًا وتكرارًا وبكت. كانت تحبّ البكاء كثيرًا، لا تعلم لماذا، ولكنّه كان يريحها، تبكي إلى أن يغلبها النعاس فتنام. كان من عادتها أيضًا أن تضع البنصر والإصبع الأوسط على عضوها التناسلي وهي صغيرة لتشعر بدفئه اللذيذ، ولم تكن تدري لِمَ كانت هذه العادة تمتّعها. ربّما الآن صارت تعرف. الآن ما يقلقها هو الحبّ. حبّ سرّي تمارسه بعيدًا عن الأعين. تمارسه من غير أن يعرف مخلوق به. لم تكن تعرف عن أبو عليّ إلاّ ما يعرفه الناس تقريبًا. إنسان بسيط يعتاش من جمع الخردة من النفايات وبيعها. جاء إلى لبنان بعد أحداث أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠، ليواصل نضاله في صفوف الثورة. ترك هناك زوجة وخمسة أطفال، وبعد عام من مجيئه تزوّج ثانية من فتاة تصغره بخمسة عشر عامًا، طلّقها لرعونتها ومطالبها التي لا تتوقّف عند حدود مخصّصه الشهري. كان مجبرًا أن يرسل نصفه لعائلته ويعيش على النصف الآخر مع آمال. وحين خرجت المقاومة من لبنان بقي هو في عين الحلوة وانقطع نهائيًا عن عائلته. لم يعد بإمكانه إرسال المال لهم بعد أن توقّفت فتح عن إعطائه المخصّص.

دبّ اليأس في قلب فاطمة حين تداعت حياة أبو عليّ أمامها. أحسّت أنّ قلبها ينقبض بعد أن كان منذ لحظات قليلة يرتعش بفرح طفولي... وقالت تحدّث نفسها: شو أنا ناقصني!

استلقت على الأرض، وحدّقت ساهمة في الفراغ، ثم بكت مجدّدًا وغرقت في ملوحة أيّامها.

معسكر أوزو

فاطمة كانت امرأة عاديّة في حياة صارت غريبة عليها، تحاول أن تمضي أيّامها وتقضمها في فراغ النكبة. كبتت تأوّهاتها وانزوت وحيدة في فراشها، كما فعل جميع نساء المخيّم ورجاله. رحلت عنهم أبسط بديهيّات الخصوصيّة إلى غير رجعة. حتى التريّض بعيدًا عن الأعين والآذان تحوّل إلى حلم يومي يسعون إلى تحقيقه.

هكذا فكّرت فاطمة بعد أن اكتشفت أنّ للذّة صوتًا لم تعد قادرة على خنقه، بعد أن بدأ جسدها يتبدّد وينتشر ويراوغ في المكان.

بدأت خيوط الفجر الأولى تشقّ عتمة ليل فاطمة الطويل حين أخذت تعود بذاكرتها إلى الوراء. عتمة فاضت في داخلها واحتلّت مساحات روحها طوال خمسين عامًا عاشتها وحيدة مع نفسها، تحدّثها ولا تفهم.

منذ خرجت فاطمة من بلدتها الصغيرة (صفد)[1] وهي تعبة.

---

(١) بلدة فلسطينيّة في الجليل.

تتعارك مع تفاصيل البقاء اليوميّة. كانت والدتها توقظها صباح كلّ يوم لملء التنكة بالماء من حاووز المخيّم. تنهض على مضض وسرعان ما تلفّ لها قطعة قماش على شكل دائرة تعينها على حمل التنكة على رأسها، وتقول لها هيّا! فتسرع فاطمة الخطى كي لا يسبقهما أحد. كانت خطوات فاطمة الصغيرة تتعثّر وهي تلهث وراء خطوات أمّها هند. إن حالفهما الحظّ ووصلتا قبل الجميع كان النهار يمرّ بسلام، لكن لو حدث أن سبقتهما إحدى النسوة أو نساء عديدات فذلك ينذر بشجار قد ينتهي بشدّ الشعر وتبادل الشتائم، التي كانت تحرج فاطمة حين تخرج من فم والدتها وأفواه النساء اللواتي يصارعن لملء تنكاتهنّ قبلها، أو تحويل المساحة الممتدّة حول الحاووز إلى ورشة غسيل. والأمّ مستعجلة دومًا للعودة لإعداد فطور إخوة فاطمة السبعة. كانت فاطمة البنت الوحيدة بين سبعة صبيان، أكبرهم كان في السادسة عشرة من عمره، تفصل بين الواحد والآخر سنتان من العمر وأحيانًا سنة واحدة.

كان الحاووز مكانًا لالتقاء النسوة. يتبادلن فيه أخبار المخيّم والشتائم، ونادرًا ما كان الصباح يمرّ من غير شجار يعلو فيه الصراخ ويصمّ آذان فاطمة، التي كانت تبتعد دائمًا كي لا تصيبها صفعة بالخطأ، أو ربّما عن قصد حين تعجز إحداهنّ عن الوصول إلى أمّها وضربها. إن انتصرت الأمّ وعبّأت تنكتها وتنكة فاطمة قبل الجميع كانت تأتي إحداهنّ لتقلب التنكة عن رأس فاطمة، فيتجدّد الشجار ثانية. شجار لا ينتهي، تنتزع هند خلالها خصلات من شعر غريمتها وتعود بصيد وفير من الخصلات تعلّقها على جدار الخيمة

التي ستتحوّل فيما بعد إلى كوخ من التنك، يصبح مع مرّ الأيّام بيتًا من الحجر، سقفه من الزينكو وأرضيّته من الإسمنت تحيط به حاكورة، أو حديقة مسيّجة بالأسلاك الشائكة. لكن.. لا مرحاض فيه... ولا مياه.

فاطمة كانت تعيش تفاصيل يوميّة تتحوّل إلى مشاهد تحتلّ ذاكرتها، لا يبقى منها غير وجوه غائمة لا ملامح لها ولا أسماء. فقط وطأة التفاصيل التي ارتسمت على محيّا فاطمة وزرعت الحزن في عينيها. حزن لم تستطع ابتسامتها الجميلة محوه. سكن الحزن عينيها، لكنّه لم يطرد أبدًا البراءة عن روحها. براءة عذراء أشبه بوردة على وشك التفتّح أو وعد بالحبّ والعطاء.

حين أتت فاطمة إلى لبنان، مشت أيّامًا عدّة مع عائلتها وحشد كبير من الناس. منذ ذلك الوقت كرهت فاطمة الحشود وتدرّبت على عزل نفسها بينها. نصبت والدتها خيمة في مكان فسيح سرعان ما احتشد بالخيم. في تلك الأيّام تولّت هيئة الإغاثة الدوليّة الاعتناء بحشود اللاجئين، وكانت أوّل مساعدة قدّمتها لهم هي الخيم، وصار يُطلق على المكان الذي تسكنه اسم المخيّم، وصار الناس يُنسبون إليه حين يخرجون منه. أمّا حين يُسألون داخل المخيّم من أين هم، فينسبون أنفسهم إلى القرية التي أتوا منها في فلسطين أو أتى أهلهم منها. ولهذا انتسبت فاطمة في لبنان إلى أوّل مخيّم سكنته، إلى مخيّم برج الهوا. حتى حين اضطرّت أن تلجأ إلى مخيّم برّ الثعالب في البقاع إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان بعد

أن وصل إلى بيروت، هربت وقالت:

ـ أنا من مخيّم برج الهوا وظلّت تقول هكذا.. حتى حين هربت من قصف الجيش السوري لفلول الفدائيّين المنسحبين من بيروت، بعد أن استقرّ بهم الانسحاب في البقاع. هربت إلى مخيّم نهر البارد مع قوافل الفدائيّين الذين انسحبوا مجدّدًا إلى طرابلس بعد خروجهم من البقاع في العام نفسه تحت ضغط القصف الشقيق. وحين سكنت في مخيّم شاتيلا بعد المجزرة ظلّت تقول: أنا من مخيّم برج الهوا! وصارت صفد مع الوقت شيئًا أشبه بالتراث، تحتمي بها كلّما اشتدّت عليها الحروب أو أذلّتها عبارة الغرباء إن لم تسعفها السذاجة أو تحمِها من ذلّ الأصابع أو النظرات، أو كلمات تصدر على أفواه مستاءة من وجودها في لبنان. لطالما أرادت أن تجاهر بأنّ لديها بيتًا جميلاً هناك وزنابق وشمسًا لم تر مثيلاً لها بعد الرحيل القسري الكبير عن فلسطين. لكنّها في قرارة نفسها كانت تشعر أنّها غريبة حتى عن أهالي مخيّمها وعائلتها وأسرتها. كانت تعيش وسط أسوار من نوع آخر، لكنّ صوت القذائف كان يشغلها عن التفكير بكسرها، أو تسلّقها والهروب. تجاهلتها وأمعنت بل أدمنت، وتحوّلت الأسوار إلى خوف عميق يداهمها من غير سبب. تحوّلت الأسوار مع الوقت إلى رفيق مزعج لم تملك أن تهرب منه إلاّ إلى التفاصيل إيّاها والضجيج.

وحينما هربت من مخيّم شاتيلا بعد حرب المخيّمات، كي

تنجو من حصار النار والجوع والعطش، لم تجد مكانًا يؤويها، فلجأت إلى مخيّم صغير بائس على تخوم مخيّم عين الحلوة يدعى أوزو. لم يسمع أحد به إلاّ حين زارته صدفة صحافيّة من جريدة النهار لتجري تحقيقًا عن أحوال الفلسطينيّين بعد مرور خمسين عامًا على النكبة، كجزء من احتفاليّة نظّمها الياس خوري في مسرح بيروت ذلك العام وعمّت الجامعات والصحف...

حين سألتها الصحافيّة من أين أنت قالت: من مخيّم برج الهوا وسكتت.

فقالت الصحافيّة: أقصد من أين من فلسطين؟

فأجابت: من صفد.

كانت فاطمة تعيش في مخيّم أوزو في غرفة ضيّقة لا تتجاوز مساحتها الستّة أمتار مربّعة. لا نوافذ فيها.. لا مطبخ ولا مياه ولا مرحاض. جدران تملؤها الثقوب وسقف من الزينكو وأرضيّة متكسّرة وباب يوشك على الانخلاع، وحياة تنزف بلا انقطاع.

لم تكن الوحيدة التي تعيش هكذا؛ فالغرفة طرف من سلسلة غرف بُنيت على عجل. لا لتكون بيوتًا، بل معسكر تدريب لضبّاط فتح الذين عادوا من حرب ليبيا وتشاد. كان الضبّاط قد أُرسلوا لدعم معمّر القذافي في حربه مع تشاد. هناك أرسلوهم إلى صحراء أوزو على الحدود بين تشاد وليبيا ووضعوهم في معسكر، حين عادوا منه بنوا معسكرًا شبيهًا به وأطلقوا عليه اسم أوزو. وحين انسحب الفدائيّون الفلسطينيّون من لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي

أخلوا المعسكر كما مواقعهم جميعها ورحلوا. مع الوقت صار أوزو اسمًا لملجأ يأتي إليه الهاربون من مخيّمات اللجوء من حروب عديدة فُرضت عليهم. كان سكّان مخيّم أوزو خليطًا من أهالي مخيّمات صبرا وشاتيلا ونهر البارد وتلّ الزعتر وبرج البراجنة، أو ملجأ لنساء مطلّقات أو مهجورات، أو أرامل فقدن المعيل وبات عليهنّ أن يحاولن البقاء بمفردهنّ وحيدات.

فاطمة كانت أرملة وأمًّا ثكلى لأربعة أبناء شهداء عُلّقت صورهم على جدران بيتها في أوزو، أمّا الخامس فهرب إلى بلاد العالم الواسعة، فراحت تربّي أحفادها من ابنها البكر، بعد أن هربت أمّهم هي الأخرى ولم يمض على استشهاد زوجها سنة واحدة. يومها بدأت الأقاويل. فلطالما كان المخيّم مرتعًا خصبًا للأقاويل، وتوفّرت لساكنيه مادّة طازجة للتداول: صديقة! أرملة ابن فاطمة البكر أحمد!

لم تعد صديقة تطيق أن تستيقظ كلّ صباح لتسأل نفسها ماذا ستطعم أطفالها. اقتلعتهم من أفكارها! هكذا فكّرت فاطمة.

قرّرت وهربت مع أوّل رجل عرض عليها الحبّ والزواج! هكذا ظنّ الناس.

وعلى تخوم هذه الأقاويل نُسج الكثير. منها ما كان يصل إلى أذن فاطمة، ومنها ما لم تسمع منه شيئًا. هي لم تكترث لما يُقال أو قد يُقال أو لم يُقل. امرأة أثقلتها التفاصيل فاستسلمت وفقدت الرغبة في الإصغاء.

حين أخبرتها أمّ فيصل عمّا يقولونه عن هروب صديقة مع رجل لم تفهم فاطمة من أين خطرت ببالهم هذه الفكرة. نظرت إلى أمّ فيصل نظراتها الغائمة تلك. سرحت ولم تتفوّه بكلمة.

بدأت فاطمة بعد هروب أرملة ابنها العمل في البيوت. كان حظّها كبيرًا حين تتمكّن من إيجاد من يطلبها للعمل ولو لمرّتين في الأسبوع. تجلس أمام عتبة الكوخ وتنتظر.

تأتي جارتها أمّ محمّد مساءً تطرق بابها قبل أن تدخل إلى كوخها:

ـ «ها! يلّلا فاطمة حضّري حالك. في مرا بدّها تعزّل بكرا وقلتلها عنك».

كانت أمّ محمّد تعمل كخادمة دائمة لدى إحدى العائلات الصيداويّة، وكان من عادة سيّدتها أن تسألها عن خادمة مياومة لصديقاتها من حين لآخر.

رغم كثافة الساكنين، لم تتجاوز مساحة مخيّم أوزو الخمسمائة متر مربّع.

غرف تصطفّ بشكل مستقيم متواجهة أو متقاطعة. طرقاته زواريب لا يستطيع العابر أن يفتح ذراعيه فيها على مصراعيهما. يتوسّط الزاروب مجرور ضيّق يجعل السير في أزقّة المخيّم أشبه بالسير في حقل ألغام.

«عليك أن تتقن أين تضع قدمك. وإلاّ!» هكذا كتبت الصحافيّة

لتصف البؤس الذي يعيشه أهالي مخيّم أوزو، حيث كانت تتوزّع حنفيّات مياه هنا وهناك، وقنوات صرف صحّي مكشوفة تعبر الأزقّة والدروب. جميع الغرف أو الأكواخ متشابهة في الشكل والحجم. يشبه تمامًا ثكنة عسكريّة.

كان في المخيّم مرحاضان عموميّان. واحد للرجال وآخر للنساء.

وكان من عادة ركاد أن يتفقّد مخيّم أوزو ليتأكّد من بسط سيطرته خارج حدود مخيّم عين الحلوة، وكان يقلقه وجود تجمّعات سكنيّة هامشيّة على تخوم المخيّم، تستجدّ مع كلّ حرب تُشنّ ضدّ الفلسطينيّين. كان عليه أن يبسط سيطرته عليها كي لا تفلت الأمور من يده. لكنّ مخيّم أوزو كان يعنيه بشكل خاصّ. فهو مخيّم مليء بالنساء الوحيدات المطلّقات والأرامل. مخيّم تهدّده الفتن، وكان يردّد دائمًا: «النسوان أصل البلا، لمم، لا أصل لهنّ».

حين سألته الصحافيّة: لماذا هدمت المرحاض العامّ المخصّص لنساء المخيّم في أوزو، أجابها: «سأهدم المخيّم كلّه. . . هدول لمم، مخيّم مخدّرات وتعريص. . خلص يا عمّي خلّيني ساكت أحسن».

استاءت الصحافيّة من ازدراء ركاد لأبناء بلده البؤساء، وحدّثت نفسها: إذا كان هو من يفترض أن يحميهم يقول هكذا، ماذا ترك للآخرين. .

قصدت الصحافيّة بـ «الآخرين» حملة الغضب والتنكيل التي

صبّها الكثيرون في لبنان على الفلسطينيّين بعد انسحاب منظّمة التحرير إبّان الاجتياح الإسرائيلي.

بعد العام ١٩٨٢ انزوى الفلسطينيّون داخل مخيّماتهم كالذئب الجريح، وعاشوا نكبات متلاحقة لم تبدأ قطعًا بمجزرة صبرا وشاتيلا، واستمرّت مع حرب المخيّمات ولم تنته بها. بل استمرّت مع القيود التي كبّلت حركتهم مع فرض نظام تأشيرة الخروج والعودة على كلّ فلسطيني يريد أن يتحرّك من لبنان وإليه، حتى ولو كان مولودًا فيه. وتحت شعار رفض توطينهم، بدأت رحلة عذاب طويلة أخذت شكل المنع من العمل في أكثر من ٧٧ مهنة. وتخلّت الأونروا عن تقديم كثير من الخدمات التي كانت تقدّمها لهم، سواء التموينيّة أو الصحّيّة، وتدنّت نوعيّة التعليم في المدارس. لا إعاشة. لا دواء. لا عمل. لا تعليم. وفي تلك الأيّام لم يعد يستطع الفلسطينيّون العمل أو التنقّل في دول الخليج، بعد موقف ياسر عرفات من الغزو العراقي للكويت فدبّ اليأس في المخيّمات كالوباء.

في تلك الظروف عاشت فاطمة بؤسًا لم تعرف حتى أنّها عاشته، إلاّ بعد أن التمع البرق في تلك الليلة ليكشف عن قمريها الأبيضين.

عشرين عامًا عاشت مع زوجها، تنام على الفراش ذاته، تنجب الأطفال واحدًا تلو الآخر، وترضعهم من ثدييها من غير أن تعرف أنّ لهذين القمرين الأبيضين لذّة غير تلك التي يشعر بها طفلها وهو

يرضع. زوجها لم يلامسهما قطّ. تسأله حين يبدأ بنطحها من الخلف:

«شو في يا خليل»؟

فيجيب:

«نامي على ضهرك وافتحي رجليكي».

تفعل فاطمة مطيعة، تنام وتفتح فخذيها، فيقول:

«اشلحي لباسك».

تشلح فاطمة مطيعة.

يضع يده على فمها بقوّة ويدخل. ذات مرّة أوجعها بشدّة. أرادت أن تصرخ. خافت أن توقظ الأولاد. عضّته في يده فصرخ هو واستيقظ ابنهما البكر خائفًا. كان أحمد ما يزال في العاشرة من عمره. وفي العادة ينام قربهما مع إخوته الأربعة: محمّد وحسن وعليّ وعمر. لم تنجب فاطمة البنات أبدًا.

حين صرخ خليل تلك الليلة لم ينم أحمد أبدًا. ليس لأنّ والده صرخ فيه قائلاً: «انكتم ونام» واغتاظ من نبرة صوته. وليس لأنّه لم يفهم ما رأى. بل لأنّه ظنّ أنّ والده يضرب أمّه في الليل كي لا يراه أبناؤه. هذا ما ظنّه أحمد الذي لم يرهما قطّ متخاصمين.

كان خليل يذهب إلى عمله في المطبعة ويعود في ساعة متأخّرة

من الليل. يأكل وينام. أحيانًا لم يكن يراه وكاد يظنّ أحيانًا أنّه لم يأت لولا الكتب التي كان يحضرها معه. كان خليل لا يجيد القراءة إلاّ قليلاً وبالكاد يفهم ما يقرأ، أمّا فاطمة فأمّيّة تمامًا.

بعد النكبة لم يواصل خليل تعليمه. حين طُرد من صفد كان ما يزال في الصفّ الثاني الابتدائي. أمّا فاطمة فلم تكن دخلت المدرسة بعد. ولهذا أصرّ خليل أن يعطي أولاده ما حُرم منه. كان يتشدّد في مسألة التعليم هذه، وكان أحمد يطيعه ويتفوّق.

«علمك هو سلاحك اللي بدّو يرجّع فلسطين».

هكذا كان خليل يردّد على أبنائه. لكن حين منعت الدولة اللبنانيّة الفلسطينيّين من العمل على أراضيها، وقيّدت دول الخليج تشغيلهم في ما بعد، فقدت الأجيال الطالعة رغبتها في التعلّم التي لم تضاهها رغبة.

لكنّ أحمد لم يتوقّف عن الدراسة بسبب منع الفلسطينيّين من العمل، بل للالتحاق بالثورة. كان السلاح يغري أكثر بالعودة. لكنّ ابن أحمد البكر حسام فقد رغبته بالتعلّم وصارح جدّته أنّه لا يريد أن يصبح مهندسًا.

ـ «على كلّ حال مش راح يسمحولي أشتغل بلبنان، ودول الخليج ما راح تستقبلني، وبالدول الاسكندناڤيّة ما بيعترفوا بشهادات هون. خلص بتعلّم أدوات صحّيّة وبهاجر على السويد أو الدنمارك. هناك الأدوات الصحّيّة مطلوبة وبتطلّع ذهب».

فاطمة لا تعرف ما هو الأحسن، وتعوّدت أن يفكّر زوجها عنها، واستمرّت تفعل مع ابنها الشيء ذاته، وها هو حفيدها من يقرّر كلّ شيء. أمّا هي فكان عليها أن تبحث عن فرصة لتنظّف بيت إحداهنّ وتأتيهم بالطعام.

تجّار الدم

كان على ركاد أن يحسم أمره. إمّا أن يكون سارقًا أو مسروقًا. وحين لاحت الفرصة اقتنصها. تركت «حركة فتح» مخازن أسلحتها في مخيّم عين الحلوة بعد الاجتياح الإسرائيلي، وسحبت مقاتليها باتّجاه إقليم الخرّوب. قبل أن تدخل القوّات الإسرائيليّة وميليشيا الكتائب وسعد حدّاد أحياء المخيّم. استلم ركاد مخازن الأسلحة وتعهّد بحمايتها ونقلها إلى أمكنة أكثر أمنًا. كانت الخطّة أن يُعاد استخدامها في مقاومة الاحتلال. نظّم ركاد مجموعة من خيرة شباب المخيّم وأقنعهم بالخطّة تمهيدًا لكسب تأييدهم وتعاونهم.

«نقسم بالله العظيم وبفلسطين لن نبوح بالسرّ لأحد».

ابتدع القسم على الفور، وردّدته المجموعة بحماس مأخوذة بالهدف النبيل: الثورة والمقاومة.

يوم بدأت القوّات اللبنانيّة وميليشيا سعد حدّاد بالزحف على المخيّم تدعمها القوّات الإسرائيليّة، كان ركاد يجمع الأسلحة

ويضعها في سيّارات جيب ويغطّيها بالخضار أو «الفرش». وكانت المجموعة تساعده وتنفّذ الخطّة، لكنّ أحد أفراد المجموعة، واسمه ياسر، وقع أسيرًا بعد أن وشى به إياد أخو زوجته لميليشيا حدّاد، كي يطلقوا سراحه تجنّبًا للتعذيب الذي كان يرعبه. كان ياسر قد أخبر زوجته هلا بسرّ المخازن، وهلا ببراءة الستّة عشر عامًا أخبرت أخاها إياد كي يتكلّم مع ياسر ويردعه عن مواصلة المقاومة. كانت حبلى في شهرها الثالث، وترغب في أن يكون لابنها أب حين يولد.

صمّم ياسر على الصمود حين اعتقلته قوّات سعد حدّاد. لم يكن بوسعهم التدرّج بالتعذيب، فالوقت قصير ويجب أن يستولوا على مخازن الأسلحة. عذّبوه على الفور بالأسلاك الكهربائيّة. وأحضروا هلا واغتصبوها أمام عينيه! كانت تصرخ مذهولة، وهو يكبّر بأعلى صوته: الله أكبر.. الله أكبر! ماتت هلا أمام عينيه وصارت جثّة هامدة، وظلّ رجال سعد حدّاد يتناوبون على جثّتها، وظلّ ياسر يكبّر ويكبّر.. ماتت هلا وظلّ ياسر يكبّر ويهذي «فداك يا فلسطين»!

في ذلك الوقت، كان الشباب ينقلون الأسلحة على الحمير والبغال عبر أزقّة يخشى الإسرائيليّون ورجال سعد حدّاد أن يدخلوها. جمعوا الأسلحة في بناء مهدّم قريب من المخيّم لجهة منطقة مغدوشة، على أمل أن يتمّ تخزينها قبل الشتاء في مخزن يحميها من المطر والريح والعيون الجائعة. في ذلك الوقت كان

ركاد قد اتّفق مع تجّار الأسلحة الذين سال لعابهم فبدأوا بشرائها.

ـ «بتراب المصاري»!

هكذا كان يردّد بو ديب من عرب وادي خالد.

ـ «منشتري بتراب المصاري ومنبيع بعدين. الحرب ما خلصت والجاي أعظم».

أقنع ركاد المجموعة بالانتشار في الجبال، ولم يعد أحد يعرف عنهم شيئًا باستثناء محمّد الذي عاد بعد ثلاث سنوات ليفاجأ بركاد وقد تغيّرت أحواله.

قبض ركاد المليون ليرة واشترى قطعة أرض في وادي الزينة سجّلها باسم زوجته، وبنى الطابقين في المخيّم، واشترى المرسيدس وبقي معه نصف مليون، ما لبث أن خسر نصف المليون عندما تدهور سعر الليرة اللبنانيّة لأنّه تأخّر في تحويلها إلى دولارات. كلّ يوم كان ينتظر أن يتحسّن سعر الليرة دون جدوى! ولكي يحمي نفسه من لغط أهالي المخيّم، انتسب إلى تنظيم الصاعقة المدعوم من سوريا، وأبقى على شعرة معاوية مع حركة فتح عبر وجوده كرئيس للّجنة الشعبيّة.

استطاع أن يحمي نفسه أكثر حين اشتعلت حرب المخيّمات، وبدأ الجيش السوري باعتقال شباب المخيّم الذاهبين إلى بيروت تحت ذريعة تبعيّتهم لياسر عرفات.

«مش ممكن تصير كلمته تنتين عند السوريّين».

هكذا قال أبو مسعد حين اعتُقل ابنه واقتيد إلى أوتيل البوريڤاج.

قال ركاد كلمة واحدة وخرج مسعد من السجن. فقط كلمة واحدة. وكي تبقى كلمته واحدة بسط ركاد سيطرته على جوار مخيّم عين الحلوة حيث نمت مخيّمات صغيرة على جوانبه وانتشرت ببؤسها كالفطر السامّ: أوزو، البركسات، المحطّة...

الضياع

حين هربت «صديقة» أرملة أحمد الابن البكر لفاطمة تحدّث أهل المخيّم ونسجوا الحكايات. منهم من قال إنّها هربت مع رجل عرض عليها الزواج. ومنهم من قال إنّ صديقة تشاجرت مع فاطمة ذات صباح حين فاجأتها مع رجل غريب في تلك الغرفة الضيّقة بعد أن خرج الأطفال إلى المدرسة وفاطمة إلى السوق. لكن لا صديقة هربت مع أوّل رجل تقدّم للزواج منها ولا فاجأتها فاطمة مع أحد. ففي خريف ينسحب إلى الشتاء أفاقت صديقة ذات صباح حزينة.

كانت فاطمة في زاوية الغرفة تحضّر فطورًا لأحفادها قبل ذهابهم إلى المدرسة وهي تحاول أن تستعجلهم بصوت خافت كي لا توقظ صديقة وتدعها تنام. فقد كانت صديقة تعاني أرقًا مزمنًا انتقلت عدواه إلى فاطمة حين بدأت تصحو ليلاً على تقلّب صديقة الدائم في الفراش. أحيانًا كانت صديقة تتقلّب حتى ساعات الفجر الأولى، وأحيانًا تنسحب من الفراش لتجلس أمام الجدار المقابل بعد محاولة فاشلة للاستفادة من المساحة المتاحة داخل أرجاء

الغرفة الضيّقة.. خطوة خطوتان ثلاث، فتسبر المسافة ما بين الحائط والحائط. قدمان أو ثلاث لا أكثر وعندها تستسلم صديقة للجلوس على الأرض المغطّاة بحصيرة ممزّقة. ثم تعود إلى الفراش لتعاود التقلّب، وتعود ثانية للجلوس على الحصيرة. هذه الليلة مارست صديقة طقوس الأرق المعتادة حتى تباشير الصباح الأولى إلى أن غفت عيناها بعد أن هدّها الأرق. وحين علا صوت الأولاد استيقظت.

لم تتبادل، كعادتها، تحيّة الصباح مع أحد. لا مع أولادها ولا حتى مع حماتها، بل ظلّت صامتة ترقب فاطمة وتنتظر أن يفرغ المكان من ساكنيه.

توجّهت إلى مرآة صغيرة لها إطار بنّي أحضرتها فاطمة من بلدة «القريّة» المسيحيّة المحتلّة من قبل التنظيمات الفلسطينيّة واللبنانيّة، والمطلّة على مغدوشة، أحضرتها فاطمة معها حين ذهبت ذات يوم بطلب من إحدى جاراتها لتنظيف بيت أبو طارق المسؤول العسكري لحركة فتح. يومها دفعوا لها بسخاء وأخذت من البيت المرآة. أعطاها إيّاها أبو طارق حين رآها تتأمّل نفسها بها. فقال: خذيها.

ـ لا. الله يخلّيك. تمتمت فاطمة بحياء.

فقال: لا بأس لا أريدها. سأضع أثاثًا جديدًا. أنا لا أحبّ أن أستخدم أشياء أناس آخرين!

كان البيت لعائلة مسيحيّة هربت حين اشتدّت نيران المعارك

حولها فوضعت فتح يدها عليه. بيت كبير محاط بحديقة جميلة. كان الأثاث قد تبهدل حين قرّر أبو طارق إحضار زوجته وأولاده من عمّان ليسكنوا فيه. أحبّت فاطمة تلك المرآة، لهذا اغتاظت حين كسرتها صديقة. لم تعرف لِمَ أو ما الذي جعل صديقة تضرب المرآة بكوب الشاي الساخن ذلك الصباح، فتحطّمت قطعًا، لكنّها بقيت محافظة على تماسكها ولم تقع على الأرض. حفظها الإطار من السقوط إلاّ من بعض القطع. احتفظت فاطمة بإحداها. لا يعدو حجمها حجم كفّ اليد. حين نظرت فاطمة إلى نفسها فيها لتتذكّر تلك اللحظة التي تأمّلت نفسها بها لأوّل مرّة لم تر نفسها بل وجهًا مكسورًا يرحل في مجهول..

يوم ذهبت فاطمة لتخدم في بيت أبو طارق حاولت صديقة أن تثنيها عن عزمها فلم تستطع. وصل الأمر بصديقة أن أبدت رغبتها في الذهاب عوض فاطمة فصرخت فاطمة:

ـ لا. أنت لا. تشتغلي خدّامة؟ أنت زوجة شهيد لا. بيقولوا الناس كمان إنّو أبو طارق عينو بيضا وداير على قلّة الحياء إذا شافك أكيد بدو.. و.. و.. أنا بروح.

سكتت صديقة وقالت لها: معك حقّ.

لم تعرف فاطمة أنّ أبو طارق حاول إغواء صديقة قبل ذلك بكثير، حين ذهبت إليه تسأله عن مخصّص زوجها الشهيد الذي لم يعد يصلها بانتظام. كان مرافقوه مثل القوّادين. (لأ. قوّادين ونصّ!) فكّرت صديقة.

واحد منهم تقدّم منها وقال: «لازم تشوفي الأخ أبو طارق. نحنا ما فينا نعمل شي».

وابتسم ابتسامة صفراء. وافقت فأفسحوا لها الطريق وكأنّها قائد عسكري كبير يزور الموقع. تفاجأت ولعب الفأر في عبّها. وهناك وضع لها أبو طارق دفتر الشيكات أمامها. هي وهو والحيطان ودفتر شيكات يغطّيه رصيد بملايين الدولارات. أموال الثورة في لبنان كلّها رهن إشارتها.

فقط توافق. هي لم تكن متأكّدة علامَ توافق، ولكنّها فهمت من نظراته السافرة. اختنقت وأحسّت أنّ قدميها رحلتا بها إلى الشمال. لا ليس إلى شمال فلسطين حيث بلدتها الصغيرة تنتظر أبناءها الغائبين، بل إلى قطب الشمال حيث الصقيع يفتّت الأبدان. في ذلك اليوم لم يعد بإمكان صديقة أن تنظر إلى الجنوب. شعرت أنّها أضاعت الاتّجاهات ولم تعد تعرف إلى أين تنظر.

ـ لا، شكرًا. لا أريد سوى ما هو حقّ لي! ولأولادي!

تصنّعت عدم الفهم، وصارت تعدّد له أسماء نساء وعائلات تحتاج للمساعدة. ثم تتوقّف بين كلّ ثلاث عائلات شهداء لتسأله: هل أرسلهم لك؟ ثم هناك جارنا أبو مصطفى. امرأته جُنّت وهو مصاب بسرطان الرئة، وتوقّفت الأونروا عن تغطية كلفة علاجه، وإذا أعطوه الدواء بيعطوه بعد شهر يا حرام. هوي راح يموت راح يموت، بسّ يمكن إذا بتطلّع فيه بترفعلوا معنويّاتو..

عرف أبو طارق أنّها تستهبل رغم الصدق في نواياها. أعجبته

أكثر وأثاره هروب عينيها من مواجهته ولحظ ضعفًا في هذا الهروب فقال في نفسه: سأصبر..

صديقة كانت ضعيفة فعلاً، فهي لا تستطيع أن تثير فضيحة في المكتب. حسبتها جيّدًا وقالت لنفسها: «أوّلاً سوف يقطع عنّي مخصّص الشهيد. شباب الكتيبة رحلوا وليس لي غير هذا القزم. لو في واحد بسّ من شباب الجرمق كنت فرجيتو. بعدين ما حدا راح يصدّقني، مش عشان شي، بس لأنّو ميزان القوى مش بصالحي. مين بدّو يعادي مسؤول حركة فتح بالمخيّم. ما حدا بيسترجي والمسائيل بالتنظيمات التانية على أوسخ. بعدين أيّ فضيحة من هالنوع دايمًا راح يحطّو الحقّ على المرا ويقولوا هيّي تحركشت. خلص باكل هوا وبنطمّ. وانطمّت صديقة».

لم تجرؤ صديقة أن تقول لفاطمة حين عادت ما حصل معها. أعطتها الشيك وطلبت منها أن تصرفه من البنك العربي في صيدا، وغابت في المطبخ.

تذرّعت بتنظيف الصحون لتخفي دموعها التي حبستها عن فاطمة وبكت.

يومها بكت أحمد كأنّه توفّي للتوّ. بكته كما لم تبكه حتى قبل وفاته.

ظلّت يومين صامتة. فاطمة أعطت الشيك لجارتها أمّ فيصل كي يصرفه لها أبو فيصل حين يذهب إلى عمله في صيدا. صديقة لم تتكلّم لكنّ فاطمة فهمت.. وبكت هي الأخرى. ولكن كي لا

تبكي أمامها ذهبت إلى المرحاض وهي تداري دموعها عن أهالي الحارة كي لا يسألوها.

حاولت أن تفتح باب المرحاض فنادى صوت امرأة في الداخل «صبرك شويّ».

هي تريد أن تصبر لكن دموعها لا. وحين مرّت بقربها أمّ صبحي ألقت تحيّة الصباح فأخفت فاطمة وجهها وتصنّعت أنّها تلتقط شيئًا وقع منها على الأرض.

ماذا ستقول لأمّ صبحي إن رأتها تبكي وسألتها. حتى لو قالت لها شيئًا آخر. مثلاً لو قالت إنّها تبكي لأنّها تستيقظ كلّ صباح منذ شهر، وتحاول أن تجترح المعجزات لتطعم أحفادها وأرملة ابنها. لكن لا!

تارة تسلق الحمّص وتضيف له البصل والبرغل ومكعّبًا من مرقة الدجاج بدل اللحمة، وتارة تطبخ المجدّرة من غير زيت، بل بالسمنة لأنّها لا تملك ثمن زجاجة الزيت. كانت تطبخ بما توفّر لها من تلك الإعانات التي توزّعها الأونروا أحيانًا وليس بشكل دوري، وفقط على العائلات التي لديها حالات صعبة. كانوا يسمّونها «hard case». تسمع بالكلمة. تردّدها أمام موظّف الأونروا لتعرف في أيّ مكتب تسأل وهي لا تفهم الكلمة. لكنّها كانت تشعر بداخلها بالذلّ وهي تردّدها.

انحنت فاطمة فانسكبت دموعها على الأرض وكأنّ المياه الجارية في وسطها لا تكفيها، واختلطت دموعها بمياه قناة الصرف

الصحّي الممتدّة وسط الزقاق حيث يرمي الناس بقايا مياه الغسيل وشطف الصحون، ويفرغ فيه الصبيان بولهم حين يتكاسلون عن الذهاب إلى المرحاض العمومي. يخرجون بضاعتهم ويفعلونها أمام أعين المارّة. هناك بكت فاطمة من العجز! لا من القهر! لا: من الاثنين معًا!

حين خرجت المرأة من المرحاض انتبهت لانحناءة فاطمة، فاقتربت منها:

ـ مالك خيتا؟ اضطربت فاطمة. .

ـ لا شيء. مصابة بمغص شديد وأشعر بالدوار.

لم تقنع إجابة فاطمة المرأة، ولكنّها تركتها لشأنها.

ثم قالت في نفسها: «حتى لو عرفت ليش عم تبكي شو فيّي أعملّها؟ أكيد ما معها مصاري ويمكن مريضة عن جدّ وما معها تتحكّم أو ما معها تطعمي ولادها. حالها مثل حالي».

دخلت فاطمة إلى المرحاض وأقفلت الباب بسرعة واستسلمت لنوبة بكاء مرير طويل مالح أنهكها، وعندما رجعت التقت عيناها بعيني صديقة. لم تجرؤ أيّ منهما على السؤال: لماذا عيناك متورّمتان؟

كانتا أشبه بمتواطئتين تتغلّبان على ضيق الغرفة بالمسافة توسّعانها بينهما كي تستطيعا احتمال الضيق. حرصت فاطمة على احترام المسافة التي تضعها صديقة بينهما مهما كانت شاسعة.

صديقة لم تكن تقصد أن تعامل فاطمة كالغريبة. في البداية كان ذلك نوعًا من الخجل لم تستطع صديقة التخلّص منه بعد الزواج، ومع الوقت صارت صديقة تبني المسافات كي تستطيع أن تتنفّس، وكي تسمح لفاطمة بالتنفّس لو شاءت. أحيانًا كانت تحتاج المسافة للعزلة وأحيانًا للاستغراق في التفكير. فاطمة كانت تنطحن تحت ضغط المسافات، سواء ضاقت المسافة أو اتّسعت مع مَنْ هم حولها.

كانت تضيق ذرعًا بالضيق والاتّساع. كانت تشتهي حين يداهمها التباس المسافات أن تختفي.. أن تفقد الوعي.. أو تهرب. لكنّ فاطمة صارت تكره الهروب لشدّة ما هربت من مخيّم إلى آخر. لم يبق مخيّم لم تطأه قدماها، وها هي الآن في آخر محطّة لها في أوزو تجد نفسها يائسة حتى من الهروب. أحيانًا تفكّر بابنها عمر الذي هرب لطلب العلم. أين هو الآن؟ تسأل نفسها مرارًا. سمعت أنّه في أميركا تدبّر ڤيزا وهناك اشتغل في محطّة وقود وصار يدرس ليلاً.

في البداية ظنّت أنّه في الصين، إذ كثيرًا ما كان يردّد أمامها، حين تتأفّف من خروجه للدراسة على التلال الرمليّة المتاخمة للمخيّم، فيقول: اطلبوا العلم ولو في الصين.

استحوذت عليها أكثر فكرة طلبه العلم في الصين، لأنّ فتح كانت ترسل بعثات دراسيّة إلى كلّ الدول، وكانت تسمع من ابنها أحمد أنّ الصين أكثر دولة تدعم الثورة الفلسطينيّة في العالم. لكن

ما لم تكن تعرفه فاطمة أنّ بعثات الثورة إلى الصين كانت كلّها عسكريّة، وعمر لم يكن مهتمًّا بالحرب. فقط الفيزياء والرياضيّات كانتا تستحوذان على تفكيره، وإن كان، وهو صغير، يقرأ القصص والشعر ويحكي لها بعضًا منها. أخبرها ابن أمّ فيصل أنّه سمع من أحد أصدقائه أنّ عمر حصل على منحة دراسيّة من وكالة ناسا الفضائيّة لأنّه تفوّق في دراسته.

وحين سألته: شو يعني؟

قال لها: يعني ابنك صار عالم فضاء، بيركب صاروخ وبيطلع على القمر أو المرّيخ. لازم تفتخري فيه.

فرحت فاطمة لأنّ رغبة خليل تحقّقت في إصراره على أن يعلّم أبناءه، وظلّ يعاودها الحنين لتلك العبارة التي كان يردّدها: علمك هوّي سلاحك اللي بدّو يرجّع فلسطين.

«والله شاطر يا عمر. عالم فضاء. أكيد اللّي بيعرف يركب صاروخ طالع عالقمر أو المرّيخ لازم يعرف كيف يرجّع فلسطين». قالت تحدّث نفسها، ثم توجّهت بالكلام إلى أمّ فيصل وضحكة بريئة تطلع على شفتيها مباشرةً من القلب. «أنا كنت متأكّدة إنّو عمر جدع ورجّال عن حقّ وحقيق». التمعت عيناها بالفخر وامتلأ صدرها بحبور غريب. اليوم تفكّر بما سمعت وتردّد: «أين أنت يا عمر؟ إخوتك استشهدوا كلّهم وأبوك مات بحسرة محمّد وأنت.. لا بأس، ربّما أنت على القمر أو المرّيخ». كثيرًا ما كانت تقف وسط الزاروب في تلك الفسحة الضيّقة المتاحة أمام بيتها تنظر إلى

السماء ساهمة وتتخيّل عمر فوق يسبح في الفضاء على متن مركبة فضائيّة. . تتمنّى لو يستطيع رؤيتها. ولأنّها غير متأكّدة كانت تلوّح بيدها علّه يراها من فوق. لكنّ من كان يراها تحت تفعل ذلك يظنّ أنّ بها مسًّا من جنون يجيء ويذهب، وكانوا يعتبرونها امرأة بسيطة ساذجة وهي كانت تعتقد نفسها كذلك.

صديقة أيضًا لم تعد تعرف عن إخوتها شيئًا. تشتّتوا في بقاع الأرض. في الخليج والسويد والدنمارك. أمّها ظلّت في شاتيلا بعد حرب المخيّمات، ولم تعد ترغب في الهروب إلى مخيّم آخر. سكنت بيتًا شبه مهدّم لعائلة ذُبحت في مجزرة صبرا وشاتيلا. لكنّ البيت أُصيب بقذيفة أثناء حرب المخيّمات، ولم يعد يُثير رغبة أحد في السكن فيه. فسكنت فيه والدة صديقة حتى تتخلّص من دفع إيجار بيت غادره أصحابه للسكن في منطقة طريق الجديدة. لم يكن البيت يصلح لسكن أطفال، فانتقلت صديقة مع فاطمة والأطفال إلى مخيّم أوزو، ولجأت إليه مع الهاربين من حرب المخيّمات في شاتيلا وبرج البراجنة.

أفاقت صديقة في اليوم التالي لحادثة تحطيم المرآة وقالت لفاطمة بعدما ذهب الأولاد إلى المدرسة: سأذهب لرؤية أهلي في بيروت.

ـ أهلك؟

ـ قصدي أمّي.

ـ كما تشائين.

لم تشأ صديقة شيئًا، لكنّها ضاقت ذرعًا بالمسافات التي ظلّت تضغط على صدرها حينًا في الغرفة الضيّقة، وحينًا آخر تأخذها المسافة إلى اتّساع تشعر معه أنّه سيفضي بها إلى الجنون. تمنّت ركوب المسافة إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه قدماها.

وحين قالت فاطمة كما تشائين والريبة تعصرها، اختنقت صديقة بالبكاء فأسرعت إلى المرحاض العمومي وبكت. مسحت دموعها بطرف قميصها وخرجت. قبل أن تخرج كادت قدمها تطأ كومة براز تجمّعت على أرضيّة المرحاض لامرأة لم يسعفها جسدها في الوصول إلى حيث يجب أن تكون.

لم يكن في جيبها حين غادرت غير بطاقة الهويّة وخمسة آلاف ليرة لم تعرف إن كانت تكفي لركوب المسافة. قرّرت أن تجازف.

حين وصلت إلى مخيّم شاتيلا، وجدت والدتها تُحتضر. كانت معتادة على أمراضها لكن هذه المرّة لا. ستموت. فكّرت صديقة.

لم يتبقّ لها من الخمسة آلاف سوى ثلاثة بعد أن دفعت أجرة الباص الذي نقلها من صيدا إلى بيروت، وحين اقترب من المدينة الرياضيّة وهو متّجه إلى منطقة الكولا نزلت وذهبت إلى بيت أمّها مشيًا على الأقدام. وجدتها مريضة، اشترت مغلّفات شوربة بالشعيريّة لتطعمها.

أشفقت عليها وشعرت بعجز يلاحقها لم تعد تستطيع احتماله. وبينما هي ساهمة في أنين والدتها والدموع تتجمّع في عينيها،

جاءت سلمى جارة أمّها وهي امرأة بعمر صديقة. اتّخذتها صديقة صديقة لها أثناء إقامتها في شاتيلا. حين رأت سلمى الدموع في عيني صديقة بكت هي الأخرى. ومن غير أن تسأل انفجرت صديقة بالصراخ والبكاء معًا، وصارت كلمات تنساب من فمها كشلاّل هادر، لم تفهم منها سلمى شيئًا. وبالكاد التقطت منها بعض كلمات: (الثورة.. عرصات.. الشهدا.. الذلّ.. شو بدّي أعمل.. ما في مصاري.. مناكل خرا.. الأولاد.. الدواء.. الأكل.. اختنقت.. لم أعد أستطيع..).

كلمات تنفجر إلى ما يمكن أو لا يمكن تخيّله من آلام وخيبات، وأحاسيس مختلطة بالغربة والغضب والشفقة والذنب، والخوف من كارثة قادمة لا مفرّ منها، ولا طاقة لمخلوق على احتمالها، كأنّها وسط واقع غير واقعي ولا يصدّق. شيء وحشي لا يُطاق..

هدّأت سلمى من روعها وضمّتها إلى صدرها وقادتها إلى بيتها، فيما نظرات والدة صديقة تلاحقهما هلعة تحاول أن تفهم أو لا تفعل ولا تقدر.. ولكن لا. انفجرت صديقة ولم يعد بالإمكان لملمة أشلائها، وصار الشتات أكبر ممّا يمكن أن يسعه صدرها. أخذتها سلمى وهي الأخرى تختنق بدموعها، فحالها لم يكن أفضل بكثير من حال صديقة. هي أيضًا أرملة شهيد ذهب ضحيّة قذيفة في حرب المخيّمات. لكنّ سلمى كانت تتلقّى بعض الأموال من إخوتها في الدنمارك. ذهب واحد منهم أثناء حرب المخيّمات

وسحب باقي إخوتها الثلاثة بعد انتهاء الحرب مباشرةً. ومن هناك صاروا يرسلون لها شبه راتب شهري يكاد لا يكفي إطعام أولادها. مائة دولار شهريًا.

في وسط هذا السيل المروّع من الدموع، تذكّرت سلمى أنّ جارتهم نوال أرسلت تطلب مصفّفة شعر من المخيّم للعمل لديها في دبي. كانت نوال قد رحلت إلى دبي بعد مجزرة صبرا وشاتيلا مباشرةً بعدما قضى زوجها وأبناؤها في المجزرة. نوال نجت لأنّها كانت خارج المخيّم لحظة وقوع المجزرة ولم تعد تستطيع الدخول. لم يعرف الناس متى وكيف صارت نوال في دبي. كلّ ما يذكرونه عنها أنّ وجهها تجمّد على صورة أبنائها وزوجها، وكانوا حين يحاولون التحدّث إليها تنظر إليهم وكأنّها لا ترى.

تحسّنت أحوالها بعدما افتتحت صالونًا للتجميل وتصفيف الشعر في دبي. ولأنّ سلمى تعرف أنّ صديقة تتقن تصفيف الشعر وكان من عادتها أن تتسلّى مع سلمى وتصفّف لها شعرها من حين لآخر، خطر ببالها أن تعرض الفكرة على صديقة. خاصّة أنّها جميلة، وشدّدت نوال أن تكون الفتاة جميلة.

ـ ولكن ليس لديّ جواز سفر، ولكي أحصل على تأشيرة الخروج والعودة يحتاج الأمر إلى شهرين تكون الفرصة ضاعت. قالت صديقة.

ـ لا تهتمّي أعرف ضابط بالأمن العامّ إذا دفعنا له مائة دولار سيخدمنا.

ـ ما معي مائة دولار ولا حتى ثمن استخراج جواز سفر.

ـ لا عليك أنا سأتدبّر كلّ شيء.

لم تعرف صديقة كيف تدبّرت سلمى المائة دولار وتكاليف استخراج جواز السفر. قالت إنّها استدانت من أحد أقاربها وإنّ بإمكان صديقة أن تردّ لها المبلغ بمجرّد أن تقبض راتبها الأوّل.

تمّ الاتّصال بنوال وإبلاغها بقدوم صديقة، فأرسلت الڤيزا وتذكرة السفر ولم يمض أسبوعان على مغادرة صديقة لمخيّم أوزو حتى وجدت نفسها تركب الطائرة المسافرة إلى دبي صبيحة يوم ماطر.

ذهبت سلمى معها إلى المطار، بكت المرأتان وهما تتعانقان وأوصتها صديقة بأولادها وبفاطمة فوعدتها سلمى بأن تزورهم من حين لآخر.

وحين أقلعت الطائرة نظرت صديقة من النافذة والدموع تنسكب على وجهها وجسدها، فتقدّمت منها مضيفة الطيران تسألها إن كانت تحتاج إلى شيء أو هي مريضة. لم تردّ وواصلت النظر من النافذة والبكاء. لطالما حلمت بالسفر، لكنّها أبدًا لم تفكّر أن تنقلع هكذا. كانت دموعها أغزر من المطر المنهمر الذي كان يطرق نافذة الطائرة. تجهش بالبكاء وتحاول أن تتوقّف لكنّ الدموع ما تلبث أن تتجمّع في صدرها وتنهمر في موجات متلاحقة، تضع يدها على فمها كي لا يُسمع له صوت فتزيدها محاولة إيقافها هيجانًا، وتعود لتنهمر مجدّدًا على خدّيها وقبّة قميصها، وتبتلّ المحارم

الورقيّة التي أخذتها من يد المضيفة ولا يعود لديها ما تمسح به لا الدموع ولا أنفاسها الساخنة. تهدأ قليلاً فيتجمّع الألم ويتكاثف على شكل ذكريات متلاحقة كان آخرها وجه فاطمة الحائر وأصوات أطفالها وهم يتدافعون عند الباب للذهاب إلى المدرسة. لم ترغب في تركهم أبدًا على هذه الحال، ولكنّها فقدت الحيلة تمامًا. حين ذهبت إلى بيروت لم تكن تنوي أن تعود لكنّها لم تكن تفكّر أن تسافر للعمل في دبي.

اعتقدت أنّها قد تستطيع أن تعمل خادمة في بيروت عند أُناس لا يعرفونها وتؤمّن لأولادها ولفاطمة ولوالدتها ما يحتاجونه ليبقوا على قيد الحياة. لم تعد تطيق أن يعيش أولادها كالكلاب، ولم تستطع أن تستكلب كالآخرين وتبيع نفسها لثورة كان يجب أن تحرّرها لا أن تبيع وتشتري بأبنائها وبناتها. خافت إن هي صارت كلبة تعيش على عظام «ثورة» خذلتها أن يترعرع أبناؤها كالكلاب. لطالما تذكّرت كلام أبو خالد جورج الذي كان يردّده زوجها أحمد: «لكلّ شيء وجهان وجه سلبي وآخر إيجابي». وها هي تتذكّره الآن، ومصفّفة شعر في دبي أفضل من خادمة في بيروت! لكنّها لم تر في أيّ من الخيارين أيّ وجه إيجابي وفضّلت ما قاله محمود درويش في إحدى قصائده: «للحقيقة وجهان والثلج أسود». أين هو هذا الوجه الإيجابي لخيارها وهي تبتعد عن أولادها كمن ينخلع عن نفسه؟ شعرت أنّها يجب أن تفعل شيئًا لهم وهذا ما توفّر لها. عندها تذكّرت صورة للشهيد أبو خالد كتب تحتها: «يجب أن نتغلّب على كلّ الصعاب».

رحيل الزينكو إلى الرخام

كانت الطائرة تحطّ في المطار حين قادها التفكير إلى هذه المعادلة الصعبة، فمسحت آخر دمعة رافقتها في رحلة التيه هذه، وأمسكت نفسها عن البكاء وهي تضع أوّل قدم على سلّم الطائرة.

نوال كانت بانتظارها بنفسها. لم تكن لتجازف بأن تترك أمر إحضارها لأحد، خشية أن تفقد ثقة صديقة بها أو تفهم الغرض من إحضارها إلى دبي، فتفقد قدرتها على جرّ رجل صديقة إلى الوحل الذي تمرّغت به نوال لسنوات مذ أتت هي أيضًا إلى دبي، قبل أن تتحوّل إلى قوّادة!

صديقة كانت خائفة: «ماذا لو لم تأت نوال أو نسيت موعد قدومي؟ فكّرت»!

ولكنّ سلمى كانت قد أعطتها رقم هاتف نقّال ومائة دولار تتدبّر أمرها به إلى حين تقبض أوّل راتب. اتّصلت صديقة من قاعة المسافرين بالرقم فجاءها صوت نوال: أنا في الخارج

أحمل لوحة كُتب عليها اسمك. ابحثي عن اسمك تجديني.

كانت هذه طريقة التعارف الأولى.

خرجت صديقة من قاعة المسافرين وتوجّهت إلى الخارج وبحثت عن اسمها فوجدت امرأة سمينة في العقد الرابع تحمل لوحة كُتب عليها «صديقة»، تقدّمت منها وقالت: نوال؟

فأجابت: صديقة؟

فقالت: نعم. أنا هي!

ولكي تتأكّد نوال، سألتها عن جواز السفر فأعطته صديقة لها ومنذ ذلك الحين أخذته نوال ولم تعطه لصديقة إلاّ بعد أن هدّدتها صديقة بأن تشكوها للشرطة وتفضح أمرها إن لم تفعل. كانت نبرة صديقة حازمة وقالت لنوال: عليّ وعلى أعدائي أو جواز السفر!

كانت الشقّة التي أخذتها نوال إليها عبارة عن صالة تتوسّطها مائدة طعام وغرفة نوم، فيها أربعة أسرّة تصطفّ بعضها قرب البعض الآخر ولا تترك حيّزًا لساكنيها بالتحرّك إلاّ بصعوبة. وكان في الشقة مرحاضان واحد تابع لغرفة النوم ومرحاض آخر يُفترض أنّه مخصّص للضيوف، يطلّ على الصالة، ومطبخ صغير يكاد لا يتّسع لشخصين على الأكثر. شعرت صديقة منذ اللحظة الأولى بالغمّ.

هربت من الضيق فإذا هي تذهب لضيق من نوع آخر تسكنه فتاتان لبنانيّتان وأخرى مغربيّة.

رغم ضآلة المكان فإنّه كان أكثر رفاهيّة من الغرفة في مخيّم أوزو، وإن كان لا يوحي بالراحة. خفّف من وطأة المكان وجود مرحاضين نظيفين أحدهما على جانب الصالة والآخر في غرفة النوم، يتوفّر على مغطس يكفي لأن يُشعِر صديقة ببعض الرضى.

كانت الفتيات يرتدين ثيابًا جميلة وفاضحة بعض الشيء وكنّ يبدون جميلات على نحو ملحوظ. لم تفهم نظراتهنّ الفاحصة وخجلت لأنّ ثيابها كانت أقلّ مستوى بكثير. بدت نوال برغم سمنتها حريصة على ارتداء ثياب أنيقة أخفت بها عيوب السمنة، لكنّ طريقة وضعها للماكياج نفّرت صديقة منها.

لا. لا. ليس الماكياج هو المشكلة بل نظراتها الوقحة وابتساماتها المتكلّفة وهي تتفحّص صديقة التي كانت ترتدي جينزًا أزرق يكاد يهترئ على جسمها لكثرة ما ارتدته، وفوقه قميص أبيض أعطتها إيّاه سلمى لتبدو أكثر إشراقًا ممّا لو لبست البلوزة السوداء المعتادة، وجاكيت رمادي وجدته عند والدتها لا تعرف لمن يكون، ألبستها إيّاه أمّها خوفًا عليها من البرد.

قرّرت صديقة أن تتحامل على إحساسها، وألاّ تفكر إلاّ بالعمل. «ليس بالضرورة أن أُعجب بنوال، بل عليّ أن أبذل ما في وسعي لأعجبها». فكّرت! وكان قد طال أمد صمتها فخرقته نوال لتقول:

ـ هذه الشقّة تابعة للصالون، وستتقاسمينها مع زميلاتك.

ثم قادتها بيدها إلى غرفة النوم، وكانت صديقة ما تزال

تحمل حقيبة اليد التي وضعت فيها ثيابًا وبعض الملابس الداخليّة أعطتها إيّاها سلمى أيضًا، فهي حين خرجت من أوزو لم تكن تحمل شيئًا.

أمام السرير المخصّص لصديقة قالت نوال: «ستنامين هنا، وبإمكانك الاستحمام هناك»، وأشارت إلى حمّام غرفة النوم.. ثم أغلقت باب غرفة النوم واختلت بصديقة وقالت: ـ إذا سألتك زميلاتك عن اسمك قولي هيام.

فوجئت صديقة بهذا الطلب الغريب وسألتها: «لماذا أقول هيام»؟

ـ هذا أفضل. هذه البلد كلّها مشاكل وأحتاج لبعض الوقت كي أرتّب إقامتك فيها بشكل شرعي. لا تنسي أنّك أتيت بتأشيرة زيارة. إلى أن أحصل لك على تأشيرة عمل قولي إنّ اسمك هيام. لا أحد يضمن لسان الفتيات.

لم تفهم صديقة ولكنّها اعتقدت أنّ نوال أدرى بما تفعل وإن لم تشعر بالراحة.

أضافت نوال: استحمّي الآن، لقد أحضرت لك عباءة جديدة ارتديها إلى أن أشتري لك بعض الثياب. ستساعدك سناء في شرح الأشياء التي تتعلّق بالشقّة، وسأنزل الآن وأعود بعد ساعة. ارتاحي قليلاً. هل أنت جائعة؟

ـ لا.

على العموم سأحضر معي بعض الطعام، ما رأيك بالسمك؟

ـ لا. شكرًا. لست جائعة.

لم تعلّق نوال على جوابها خرجت من الشقّة من غير أن تضيف كلمة.

عندها تقدّمت سناء وعرّفت عن نفسها. كانت فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها. لبنانيّة عرفتها صديقة من لهجتها حين قالت لها: بترتيحي شوي أو بتتحمّمي هلّق؟ أو قلّك مشّي معي عرّفك عل البنات.

أطاعتها صديقة، وقبل أن تخرجا سألتها سناء عن اسمها وهي تعرف أنّها ستعطيها الاسم الذي أطلقته نوال عليها لا اسمها الحقيقي. فقالت صديقة: هيام.

في الصالة قدّمتها للفتاتين وأشارت إلى صديقة: بعرّفكن على هيام، ثم أشارت للفتاتين وقالت: عبير من لبنان وفضيلة مغربيّة.

ابتسمتا لها ابتسامة ترحيب ومَرّ التعارف بهدوء. لم يطرحن أسئلة عليها، بل بدأن يخبرنها عن دبي وهي بالكاد تصغي إليهنّ. اعتقدت سناء أنّها متحفّظة فيما صديقة كانت تشعر بالغرابة لا أكثر، فبادرت بعد عشر دقائق إلى مرافقتها للحمّام كي تغتسل. أعطتها منشفة كبيرة مزركشة نظيفة، ثم أشارت إلى الشامبو الخاصّ بها وقالت: هذا لي يمكنك استخدامه، أمّا الصابونة

فهي للجميع ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها.

(أخيرًا. صرت بمفردي) فكّرت صديقة وتابعت: (يجب أن أعتاد على حياتي الجديدة مهما حصل).

في الحمّام بحثت صديقة عن طشت فلم تجد، وكان لا مفرّ لها من استخدام مرشّ المياه. فتحت الحنفيّة فنزلت المياه وصارت تحاول أن تدعها تنزل من المرشّ. ومن غير معرفة مسبقة بتقنيّة استخدام خلاّط المياه وجدت صديقة نفسها تستحمّ بثيابها. إذ حين رفعت مقبض الحنفيّة إلى فوق نزلت المياه من الرشّاش فجأة وبلّلت شعرها وثيابها.

لم تعرف كيف توقفها، حرّكتها يمينًا فنزلت باردة تميل للسخونة. حرّكتها يسارًا فنزلت مياهًا حارّة كادت تحرقها من فرط سخونتها. أعادتها للوسط فصارت حرارة المياه معتدلة، لكنّ المياه ظلّت تنزل من المرشّ إلى أن اهتدت لتحريكها للأسفل فتوقّفت عن النزول. عندها خلعت صديقة ثيابها المبلّلة واستحمّت تحت شلاّل من المياه لم تجرّبه إلاّ حين اضطرّت ذات يوم للمبيت في بيت إحدى الأخوات اللبنانيّات في النبطيّة. كان زوجها يقاتل مع كتيبة الجرمق. ذهبت هناك يوم أُصيب أحمد بطلقة طائشة في ساقه أثناء اشتباكات حركة أمل مع الحزب الشيوعي اللبناني، فذهبت صديقة لزيارته في مستشفى النبطيّة.

أنزلها الشباب يومها في بيت الأخ أبو جعفر.

أحبّت صديقة الاستحمام في بيت «الصالون» وشعرت ببداية

جديدة تنتظرها في بلد غريب لا تعرف فيه أحدًا. بدأت بوادر هذه البداية تظهر في الحمّام الذي حُرمت من أن تمتلك مثله في أيّ مخيّم سكنته. كانت تستحمّ في بيتها في مخيّم برج الهوا في المطبخ وظلّت تستحمّ في مخيّم برّ الثعالب ثم مخيّم نهر البارد في المطبخ إلى أن أتت إلى أوزو وصارت تستحمّ في طشت من الألمنيوم في الغرفة الضيّقة وتحمّم أولادها فيه. وكانت تحمل مياه الاستحمام وترميها في المجرور العابر أمام الغرفة. حين انتهت جفّفت نفسها على مهل كي تبقى أطول مدّة ممكنة في الحمّام لتنفرد بنفسها قليلاً قبل أن تزجّ نفسها وسط زحام الشقّة، وفتيات غريبات لا تعرف عنهنّ سوى أسمائهنّ، وأنّهنّ على الأرجح مصفّفات شعر يعملن في الصالون الذي أتت للعمل فيه. كان هذا الاعتقاد نصف الحقيقة التي لم تعرفها كاملة، إلاّ بعد مضيّ خمسة أيّام على قدومها إلى دبي.

لبست عباءة قطنيّة كحليّة وخرجت محرجة لأنّها تذكّرت أنّها لم تحضر مشطًا ولا فرشاة للشعر. نسيت هي، وكذلك سلمى، الفرشاة. حين رأتها سناء قالت: نعيمًا، فأجابتها بخجل: شكرًا. ولاحظت سناء ارتباكها، سألت، فقالت صديقة: نسيت أن أحضر مشطًا معي.

ضحكت سناء ثم: مشط. بسيطة هذا أسهل شيء وناولتها فرشاة كانت مرميّة على طرف سريرها.

خفّ التورّم عن عينيها واستغربت أن لا نوال ولا أيّ من

الفتيات سألنها عن سبب تورّمهما.

عادت نوال محمّلة بأشياء داخل أكياس سرعان ما فردتها فضيلة على مائدة الطعام، بينما ذهبت سناء وعبير لإحضار الصحون والملاعق والشوك والسكاكين ووضعتها عبير في ترتيب منظّم «كما في الأفلام». فكّرت صديقة، ثم جلست على كرسيّ معهنّ كان مخلخلاً فخافت أن تقع، فعلّقت سناء ساخرة: لا تخافي! ستعتادين عليه إلى أن تتكرّم علينا مدام نوال وتحضر كراسي جديدة.

رمقتها نوال التي بدا أنّ نبرة سناء لم تعجبها، لكنّ سناء لم تكترث وبدأت بالتهام الطعام. لم تكن صديقة تشعر بالجوع ولكنّها أكلت رغبة في أن تتكيّف مع الأخريات. كانت نوال قد أحضرت سمكًا مشويًا وسلطة وبطاطا مقليّة وبعض المخلّل. فقالت عبير: زهقت من أكل السمك... وفضيلة كانت تبدو الأقلّ كلامًا بينهنّ. كانت تأكل كأنّما تمتثل لا تأكل.

نوال وجّهت الكلام لسناء قائلة: غدًا تحضرين هيام معك باكرًا كي تتعرّف إلى الصالون وطبيعة العمل. فقالت سناء: أوكي.

وبعد الانتهاء من العشاء غادرت نوال على أن تلتقي بهنّ في الغد.

على طاولة صغيرة كان هناك جهاز تلفزيون يبثّ فيلم «الحرام» على قناة دبي، كانت صديقة شاهدته وهي صغيرة.

أخرجه يوسف شاهين وقامت بدورالبطولة فيه فاتن حمامة.

جلست الفتيات يشاهدنه بصمت وكان في أوّله.

لم تعد الأفلام البائسة تجتذب اهتمام صديقة بعد كلّ البؤس الذي عاشته وتعيشه. وحين دقّت الساعة المثبّتة في الجدار تشير إلى العاشرة، سألتها سناء إن كانت ترغب بالنوم، فأومأت صديقة بالإيجاب فهي لم تعد تحتمل رؤية الألم أو الإحساس به حتى لو كان مجرّد تمثيل، وتسلّلتا سويًا، كلّ إلى السرير المخصّص لها. كان سرير صديقة ملاصقًا للنافذة، وتتدلّى من السقف ستارة مزركشة بعرض الحائط أُزيحت إلى جانبيه فبدت السماء كالحة السواد بالكاد تظهر فيها النجوم. تساءلت صديقة عن النجوم فقالت سناء: هي هكذا، سماء بلا نجوم. ربّما بسبب الرطوبة، ستعتادين عليها.

استلقت صديقة على السرير وأطفأت سناء الضوء كي تتمكّن صديقة من النوم. كان عمر صديقة حوالى الثلاثين عامًا ورغم الفارق العمري بينها وبين سناء لكنّه بالكاد كان ملحوظًا. كانت سناء تبدو أكبر بمعنى ما. هكذا أحسّت صديقة، ولهذا شعرت أنّها قريبة منها بعض الشيء، ربّما أيضًا بسبب الحزن الذي يطلّ من عيني سناء كلّما توقّفت عن الابتسام أو الكلام واسترخت لتأمّلاتها.

أفاقت صديقة ليلاً، نظرت حولها فخافت ولم تدر أين هي، ولكنّها سرعان ما تذكّرت فخافت أكثر ولم تعد تستطيع النوم.

أغمضت عينيها وأخذت تفكّر في ما أقدمت عليه وأحسّت بالذنب، ما لبثت أن عزّت نفسها بأنّ رحيلها وبقاءها سيّان «بل ربّما الرحيل قد يأتي بنتيجة» فكّرت ثم: أيّة نتيجة سأجنيها هنا؟ لم تعرف ولم تتأكّد. كان الأهمّ بالنسبة إليها ألاّ تضطر ثانيةً لأن تضع نفسها بمواجهة أبو طارق أو كومة براز لم يصل إلى البالوعة في الوقت المناسب.

لم تعد تستطيع أن تنظر إلى أولادها وتسأل نفسها: ماذا سأطعمهم اليوم؟

لم تعد تستطيع تحمّل وجه فاطمة وهيئتها الحائرة على عجز عند أيّ تفصيل مهما كان حجمه أو طبيعته.

لم تعد تتمكّن من رؤيتها تذهب لتخدم في بيوت مسؤولي التنظيمات أو بيوتات الفلسطينيّين ممّن هم ليسوا بأثرياء ولكنّهم أفضل حالاً منها. لم تعد تحتمل فرحتها بالثياب المستعملة التي تحضرها معها حين تعود من العمل كخادمة في منزل أمّ صالح شريح، وتساعدها في تحضير الطعام لمدعوّي زوجها.

تأتي فاطمة محمّلة بالطعام والثياب. أمّ صالح تشعر أنّها في حال أفضل وتقنع نفسها أنّها أحسنت إلى فاطمة، وصديقة تزداد ضيقًا وعجزًا إذ ليس لديها حلّ آخر ربّما سوى أن تخدم مكان فاطمة.. هكذا فكّرت صديقة ثم تابعت:

لا لم أكن أستطيع. تمنّيت لو أنّ كبريائي تساعدني قليلاً وأتنازل. لكن لا. ما كان يغيظني أنّ فاطمة تعود سعيدة من بيت

أمّ صالح وكذا الأولاد يفرحون بعطاياها. لطالما شعرت بالمرارة كلّما تناولت لقمة من طعام أمّ صالح رغم أنّها طبّاخة ممتازة.

لا. لا مجال للعودة إلى المخيّم. مهما حصل، قراري كان صحيحًا. أعرف ما سيقوله الناس عنّي وينسجونه ولكن ماذا فعلوا ليردّوا عنّي كلّ هذا الذلّ؟

لا شيء. كلّ واحد بالكاد يتدبّر يومه ولا يفكّر إلاّ بنفسه، وأنا فعلت مثلهم.

كما يقول المثل: «إذا ربعك جنّ عقلك ما بينفعك». بسّ أنا ما جنّيت أنا هلّق عقلت وهي مسألة وقت وأحضر فاطمة والأولاد معي هنا.

كانت صديقة متفائلة بقدومها إلى دبي، مذ لمست معاملة نوال الطيّبة لها. لكنْ كان لديها أيضًا إحساس غريب تجاه نوال أخافها.

لم تكن ترتاح لها. اعتقدت أنّها تبالغ بإحساسها ولامت نفسها وقرّرت أن تتفاءل.

في الصباح، ذهبت صديقة وسناء إلى الصالون بمفردهما. فتحت سناء الصالون فوجدت صديقة نفسها في صالة واسعة غطّت كلّ جدرانها مرايا كبيرة وعلى امتداد الجدران تقريبًا، تفصل بينها مساحات صغيرة عُلّقت عليها صور فتيات بتسريحات بعضها جميلة وأخرى عجيبة غريبة.

سُمر وشُقر وحُمر، أو شعور موشّحة بخصل من ألوان مختلفة. أمام المرايا رفوف زجاجيّة صُفّت عليها قوارير مختلفة الأحجام والألوان، وُضعت أمامها عشر كراسيّ على التوالي. في أقصى زاوية الصالة مكتب صغير فيه أدراج عديدة، وراءه خزائن زجاجيّة عُرضت داخلها أقلام أحمر شفاه وزجاجات طلاء الأظافر وبعض أنابيب الصباغ الملوّنة وإكسسوارات للشعر. بين كرسي وآخر تقريبًا كانت هنالك رفوفٌ جرّارة عُلّق على كلّ منها مصفّف للشعر، وفيها بعض اللفافات والأمشاط وفراشٍ من أحجام مختلفة.

وانتشرت بعض الأرائك الجلديّة، واحدة فصلت الصالة عن المكتب وأخرى وُضعت أمام أحد الجدران يفصل بينهما طاولات صغيرة، وُزّعت عليها منافض للسجائر وتوزّعت في بعض الزوايا نباتات خضراء كبيرة لم تر صديقة مثلها من قبل.

إلى يسار الصالة لجهة المكتب غرفتان، واحدة مخصّصة للعناية بالبشرة ومعالجة مشكلاتها بأدوات شرحت لها سناء أوجه استخدامها، والثانية وُضعت في وسطها طاولة للتدليك يغطّيها شرشف أبيض تشبه طاولة الكشف في غرف الأطبّاء، إلى جانبها رفوف عديدة صُفّت عليها قوارير عديدة، هي زيوت وكريمات من ماركات أجنبيّة مختلفة. فهمت صديقة من سناء أنّ الطاولة مخصّصة للتدليك أو تستلقي عليها الزبونة لإزالة الشعر الزائد عن جسمها.

وفي الزاوية المقابلة للمكتب مغاسل عديدة لغسل الشعر، يليها باب يفضي إلى غرفة البخار المخصّصة للحمّام المغربي، وباب صغير إلى جانبها هو للمرحاض.

ما بين المكتب وغرفة التدليك ثُبّت كرسي خاصّ، بجانبه أدوات مخصّصة للعناية بالأظافر والأقدام، ومغطس يعمل على الذبذبات الكهربائيّة لتطرية الأقدام قبل حفّها بالمبرد لإزالة الجلد الميت عنها.

لم تر صديقة من قبل مثيلاً لهذا الصالون في حياتها. لأنّ صديقة لم تتخيّل يومًا الصالون سوى مكان لقصّ الشعر أو تصفيفه أو صباغته.. لا شيء أكثر. أمّا كلّ هذه الرفاهية فلم تخطر على بالها، وشعرت أنّها يجب أن تنتبه لنفسها كي لا تبدو مثل دويك في المسلسل التلفزيوني القديم «دويك يا دويك» الذي حين جاء من القرية إلى المدينة كانت الدهشة من أبسط الأشياء أقوى عليه ممّا يمكن إخفاؤه، فبدا ساذجًا، وسخر منه الجميع؛ وهي لن تدع أحدًا يسخر منها. لن تدع أحدًا يفهم أنّها لا تفهم.

وعلى الفور قالت تستبق الأمور: أنا لا أعمل على هذه الأدوات. أنا مصفّفة شعر فقط..

فقالت لها سناء: لا تخافي، ليس مطلوبًا منك أن تعملي عليها، لأنّ لكلّ غرفة اختصاصيّة متدرّبة تقوم بالعمل وتحمل شهادة اختصاص.

أخذت سناء تشرح كيفيّة عمل كلّ جهاز، وكيف يتمّ تنظيف

وجه الزبونة، وما أهمّ عمليّات العناية بالبشرة وفوائد التدليك، وأوجه استخدام الزيوت والكريمات. ثم توقّفت لتقول: اعذريني أنا أثرثر!

لا. لا. أكملي أحبّ أن آخذ فكرة عن كلّ شيء.

تشجّعت سناء، وما هي إلاّ ساعة حتى شرحت لصديقة كلّ شيء تقريبًا.

جيّد، قالت صديقة لنفسها، وفرحت من نفسها لأنّها استطاعت أن تكوّن فكرة عامّة حتى لا تبدو جاهلة تمامًا أمام نوال أو أيّ من الزبائن.

سناء لم تنتبه أنّها لا تعرف شيئًا. بل ظنّت أنّها تشرح لها ما لديها فكرة عنه على الأقلّ. ولكنّ الشيء الأهمّ الذي لم تشرحه لها سناء هو طبيعة العمل الحقيقيّة الذي أُحضرت من أجله. فكّرت سناء ثم تابعت: ستأتي نوال وتلومني. وبادرت على الفور قائلة: «طبيعة العمل هنا صعبة بعض الشيء، فكلّ صالونات التجميل تفتح صباحًا وتقفل في ساعة متأخّرة من الليل. لديك إجازة ليوم واحد، ستتّفقين مع نوال عليه، وهناك سبع مصفّفات شعر واختصاصيّة للتجميل، وأخرى للتدليك وللحمّام المغربي وتُعنى بالأظافر والأقدام «مانيكير باديكير»، وأخرى لنزع الشعر ونتف الحواجب وحفّ الوجه بالخيط.

أنا أساعد نوال في إدارة الصالون بحضورها وغيابها. أحاسب وأراقب أداء المصفّفات. وفضيلة تشرف على غرف

التدليك والتجميل والحمّام المغربي وعمليّات الحنّاء التي نسيت أن أخبرك عنها وتقوم بها اختصاصيّة نزع الشعر الزائد. عبير تهتمّ بالإشراف على الزبونات وتسهر على راحتهنّ، تقدّم الشاي، تحدّثهنّ، وتجسّ نبض كلّ منهنّ وكم تحتمل الهرش».

ـ الهرش؟

ـ أقصد إن كانت «مقرشة» أم لا. فإن تبيّن أنّها ثريّة تحاول أن تقنعها مثلاً أنّ وجهها متعب وتحتاج إلى كذا وكذا. أو أنّها قد تُزيل لها التوتّر بالتدليك، أو تخفّف سمنتها به وتجرّ رجل الزبونة إلى الصالون لتصبح زبونة دائمة... أمّا أنت فلا أعرف ماذا ستكون مهمّتك بالضبط.

ـ أنا مصفّفة شعر.. عادي. قالت صديقة كي تؤكّد على المعلومة التي يُفترض أنّ سناء تعرفها.

قالت سناء هامسة: لا. لا. ليس بالضرورة يمكن في البداية أن تعملي بالتصفيف ولكنّك جميلة وأكيد أنّك تملكين مواهب أخرى أكثر من التصفيف ستكتشفها نوال فيك وتقدّم لك مهمّة أفضل.

بدا من الهمس أنّ سناء تشجّعها على أن تثق بنفسها، ولكنّ عبارة سناء الأخيرة لم تكن بريئة، والهمس كان نوعًا من جسّ النبض تواطأت عليه مع نوال مسبقًا. هكذا جرت العادة أن تكون الأمور. هذا ما حدث مع سناء نفسها يوم أتت من بيروت للعمل في الصالون كمصفّفة شعر ولكنّها انتهت إلى شيء آخر. كان

العمل يبدأ في العاشرة، وكانت قد أتت في الثامنة بطلب من نوال نفسها.

أتت فطيمة أوّل الواصلات إلى الصالون بعد مضيّ ساعة. وهي اختصاصيّة الحمّام المغربي. سمراء بدينة وقصيرة بعض الشيء، شعرها مجعّد وقصير، في العقد الثالث، ملامحها فظّة خشنة.

بادرتها سناء قائلة: لم تأخّرت؟ العاشرة والربع الآن؟!

فنظرت إليها نظرة حانقة وقالت: صباح الخير! ألن تعرّفينا؟

ـ هيام، مصفّفة الشعر الجديدة. فطيمة معنا في الصالون ولكنّها تسكن في شقّة أخرى. هيّا، بسرعة حضّري لها الحمّام المغربي. أو لا لا. انتظري. ما رأيك يا هيام أن نبدأ بأشياء أخرى أظنّك تحتاجين إليها. سنبدأ بالواكس ثم المانيكير والباديكير وبعد ذلك الحمّام المغربي.

لم تفهم صديقة فقالت: قلت لي إنّني لن أعمل بهذه الأشياء.

فردّت سناء: ومن قال إنّك ستعملين؟ أنت اليوم بوضع الزبونة، عليك أن تهيّئي نفسك لاستلام العمل. أنت تحتاجين على ما أظنّ لهذه الأشياء، وأيضًا ستمرّين على جميع الأشياء الأخرى. أنت الزبونة الأهمّ اليوم عندنا. على العموم الزبائن لسن كثيرات هذه الأيّام وستتفرّغ لك. لا تقلقي، ما عليك إلاّ أن

تستسلمي لنا وسترين في نهاية النهار أروع مصفّفة شعر دخلت هذا الصالون. سناء تكتشف الجمال حتى لو كان مدفونًا تحت أرطال من الإهمال والأحزان.

حين اتّصلت نوال من المطار لتقول لها همسًا وعلى غفلة من صديقة: وقعت على كنز..

لم تتفاجأ عندما رأت صديقة. فرغم ثيابها غير الأنيقة وحذائها شبه المهترئ، كان شعرها الكستنائي الطويل المنسدل بإهمال على كتفيها كافيًا ليسحر أكثر الرجال رزانة. أمّا عيناها العسليّتان المتّسعتان على الدهشة فكانتا تشعّان بالإثارة والشغف رغم تورّمهما. فمها أشبه ببوّابة للجحيم؛ مكتنز وصغير في آن وشفتاها كأنّما رُسمتا بخطّ رفيع يكاد لا يُرى، وأنفها الدقيق كأنّما أنف أميرة تجري في عروقها دماء ملكيّة، وخدّان متمرّدا الزوايا يشعّان بالجاذبيّة. أمّا جسدها فكان رشيقًا، يتحرّك بخطى واثقة، مشدودًا إلى أعلى، يحسب من يراها أنّه أمام عارضة أزياء من طراز رفيع تدرّبت على المشي بخطى واثقة على الرّغم من أنّ ملامح وجهها تشي بإحساس عميق بالخوف. جمال متقن العفويّة مكتمل النضوج.. حتى مسحة الحزن التي كست تعابير وجهها ونظراتها كانت تزيدها سحرًا وجاذبيّة.

هي تأمّلتها جيّدًا مذ حطّت رجلها في الشقّة، وكادت أن تثني على رأي نوال لولا الغيرة التي قرصت قلبها. لكنّها سرعان ما انتبهت لنفسها، وعوض أن تظهر غيرتها صمّمت سناء أن تثني

على براعتها هي في إبراز مفاتن أيّة امرأة مهما تضاءل حظّها من الجمال، وتنسب الفضل لنفسها. فقالت لنوال وهي تغادر الشقّة لإحضار الطعام: اتركيها لي غدًا وسوف ترين. أحضري لها الملابس، أظنّ أنّ قياسها ٣٨ وأنا أتكفّل بالباقي.

وبدأت صديقة تنتقل من يد إلى يد. سناء تزيل الشعر الزائد عن جسمها، ومن ثم تقلّم أظافرها وتحفّ قدميها الصغيرتين. وفطيمة تجرّها إلى الحمّام المغربي رغمًا عنها، ورغم الخجل الذي سيطر عليها في البداية من خلع ملابسها كاملة. ولكنّها استسلمت حين وجدت نفسها بين يدي فطيمة تفرك جسمها بأعشاب مغربيّة خاصّة، وسط سحب كثيفة من البخار كادت تختنق بها. أرادت أن تخرج لكن «لا». قالت فطيمة بحزم. امتثلت صديقة حين وضعت لها فطيمة مرهمًا خاصًّا على شعرها لإعطائه المزيد من الحيويّة.

نصف ساعة كانت قد مرّت حين بدأت فطيمة بدعك جسدها بكيس خشن، سرعان ما أخذت بشرة صديقة تتفتّت تحته ويتساقط الجلد الميت على منشفة الحمّام. استلقى الجسد المتعب على مصطبة مرتفعة من الرخام فُردت عليها المنشفة وطلبت منها فطيمة أن تسترخي على بطنها. وصارت تدعك وتفرك، وتقلّبها حينًا على ظهرها وحينًا على جنبيها، ثم ما تلبث أن تعيدها للوضعيّة الأولى، وتدعك وتفرك إلى أن أحسّت صديقة أنّ فطيمة تكاد تسلخ جلدها عن لحمها.

حين اكتفت فطيمة بالنتيجة حمّمت صديقة كما تحمّم أمّ طفلها. فشعرت بالدلال والخجل في آن. ولم تعترض أو تجرؤ على أن تعترض. قالت سناء «استسلمي» وها هي تستسلم لترى ما سيحدث. كانت تجربة غير متوقّعة. حين خرجت والمنشفة تلتفّ حول جسدها نظرت في المرآة فوجدت وجهها شديد الاحمرار وبشرتها تشعّ بالنضارة. كأنّها جديدة!

نعيمًا! قالت سناء، فأجابت صديقة بخجل: شكرًا وغضّت نظرها. ناولتها سناء كوبًا ساخنًا من الشاي بالنعناع شربته صديقة وهي جالسة إلى الأريكة مسترخية تمامًا ينتابها إحساس عميق بالراحة والانتشاء. كرّرت سناء: استسلمي فقط وسترين.

كانت سناء موهوبة باختيار قصّات الشعر فقالت: ما رأيك أن نغيّر تسريحة شعرك؟ ومن غير أن تنتظر الجواب طلبت إليها أن تجلس إلى الكرسي المقابل أمام المرآة، وحملت المقصّ وبدأت تقصّ شعرها على شكل تدرّجات متوالية من الأمام إلى الخلف. حين انتهت كانت عاملات الصالون قد حضرن جميعًا. تبرّمت سناء من تأخّرهنّ. ما لبثت أن طلبت من إحداهنّ الاعتناء بحواجب صديقة ففعلت وهي لا تعرف أنّها المصفّفة الجديدة. ظنّتها زبونة. حين انتهت بدأت سناء بتصفيف شعر صديقة بنفسها لتعطي القصّة التسريحة المناسبة. وبمجرّد أن انتهت دخلت نوال إلى الصالون وبيدها بعض الأكياس. نظرت إلى صديقة فرحة بهيئتها الجديدة فقالت: نعيمًا! هيّا ادخلي إلى غرفة التدليك

وجرّبي الملابس الجديدة التي أحضرتها لك. لم تفهم صديقة وظنّت أنّها غير جادّة، ولكن حين دخلت الغرفة وفتحت الأكياس بمعيّة نوال فوجئت بالثياب وصدّقت.

ملابس تشبه إلى حدّ كبير ما ترتديه الممثّلات. بنطال ضيّق أبيض بلون الثلج، وبلوزة قصيرة قطنيّة زرقاء بلون الفيروز، وصندل أبيض ذو كعب عال يكشف جمال قدميها العاريتين. نظرت في المرآة ولم تصدّق نفسها. فرحت كثيرًا بهذا الاهتمام بأناقتها وجمالها، وشكرت نوال قائلة: أنت امرأة طيّبة. لا أعرف ماذا أقول لك. حاولت أن تبدو مهذّبة وتظهر تقديرها على الرّغم من أنّها غير مبالية بهذه العطاءات، فقلبها وعقلها كانا هناك في أوزو عند فاطمة والأولاد. كانت تستكثر على نفسها نسمة الهواء إن أخذتها بدونهم.

ـ هذا لا شيء. قالت نوال. فقط افعلي ما أقوله لك ولن تكوني سوى امرأة جميلة يركع عند أقدامها الرجال.

صمتت صديقة وفكّرت: «إذا كان العمل سيبدأ هكذا فلا بدّ ستتمكّن من إحضار فاطمة والأولاد في وقت قريب جدًّا حين تتمكّن من جمع بعض المال».

نهضت نوال عن كرسيّها وقطعت صمت صديقة وقالت بحماسة كأنّها تبلغ الجميع: سأضع لك الماكياج بنفسي. هيّا؟ وأخذتها من يدها. أجلستها إلى الكرسي ووضعت لها مرهمًا قالت إنّه كريم أساس، ثم بدأت بوضع ظلال زرقاء خفيفة على

جفونها ما لبثت أن كحّلتها بكحل مائي فوق عينيها ومرّرت فرشاة الماسكارا على رموشها ثم وضعت القليل من أحمر الشفاه على شفتيها، بلون شفتيها تقريبًا! ورسمت حدود الشفتين بقلم رفيع، وحين وضعت أحمر الخدود على جانبي خدّيها وذقنها طلبت إليها أن تنظر في المرآة فبدت صديقة أجمل ممّا رأت نفسها طيلة حياتها. لم تتعرّف إلى وجهها لأنّها لم تعتد أن تراه هكذا يومًا، ووقفت وسط العاملات يتأمّلنها بإعجاب.

كان قد حلّ المساء حين رنّ هاتف نوال. تنحّت جانبًا فلم تسمع صديقة سوى صوت همساتها. نوال بدت سعيدة كمن يوشك على الفوز بجائزة عظيمة. كان جاسم على الطرف الآخر يتودّد إلى نوال للحصول على ما وعدته به.

ـ ها. متى سأراها؟ سأل جاسم.

ـ اصبر.

ـ لا! لم أعد أطيق الصبر. أشعر من نبرة صوتك أنّك تخبّئين شيئًا مختلفًا هذه المرّة.

ـ طبعًا! ألم أقل لك؟ ألم أعدك؟ وأنا عند وعدي.

ـ حسنًا متى سأراها؟

قالت نوال: بعد ساعة في الفندق ذاته الذي التقينا فيه بالأمس.

أنهت نوال المكالمة ونظرت إلى صديقة قائلة:

ـ ها! هيّا نخرج.

ـ إلى أين؟

ـ سأصحبك للعشاء احتفالاً بك وبجمالك الليلة.

ـ لا. لا داعي. ظنّت صديقة أنّ نوال تدلّلها وتجاملها لأنّها فلسطينيّة مثلها، وخشيت أن تتقبّل المزيد لأنّ إحساسًا بعدم الراحة ظلّ يراودها، خاصّة أنّها ليست معتادة على أخذ شيء من أحد إلاّ إذا كانت قادرة على ردّه أو تقديم شيء بالمقابل. درّبت نفسها على الزهد لتحتمي من ذلّ الحاجة مهما كان نوعها...

ـ هيّا. عليك أن تتعرّفي إلى الحياة هنا. هيّا.

امتثلت صديقة وهي لا تعرف ماذا ينتظرها. وحين جلستا إلى الطاولة في المطعم، شعرت أنّ هناك على الطاولة المجاورة من يراقبها. ما لبثت نوال أن نظرت إليه متفاجئة وهو يقوم من مكانه ويلقي السلام عليهما. بدت نوال متفاجئة من تصرّفه وفرحت لأنّه وقع في المصيدة، وسهّل عليها أيضًا أن تبدو الأشياء طبيعيّة وغير مدبّرة. لم يكن من طبيعة جاسم أن يكون متهالكًا هكذا. ولكنّ نوال عرفت كيف تجعله يتشوّق ويحترق وها هي الآن على أعتاب صيد وفير..

كانت نوال سريعة البديهة فقالت لجاسم: لم نرك أو نسمع عنك منذ زمن بعيد.

فأجابها: كنت مسافرًا، على أيّ حال نحن فيها، ما رأيك

أن تأتي غدًا. أُقيم حفلة كبيرة في الڤيلّا فأجابت: لا أعتقد. غدًا ليس لديّ الوقت، سآخذ هيام إلى السينما هناك فيلم مدهش لآل باتشينو، آه عفوًا، أقدّم لك هيام. إنّها تعمل معي وقد أتت من بيروت منذ أيّام وهي قريبتي نوعًا ما. أحاول أن أعرّفها إلى دبي قدر الإمكان لتألف الحياة هنا.

ظنّ أنّها تراوغ، ولكنّ حماسه لم يفتر وقال وهو يشدّ على يدها: أهلاً بك في دبي. تأخذينها إلى السينما بعد غد، ويمكنك أن تحضريها معك غدًا. أنا أدعوك يا آنسة إلى الحفلة ولا أقبل أيّ رفض. ثم نظر إلى نوال: ها. ما رأيك لم يعد لديك أيّة حجّة.

هذا ما كانت ترغب في سماعه، وها هو يسهّل الأمور عليها مع صديقة التي بدت بريئة تمامًا وشعرت نوال منذ البداية أنّها قد تصعّب عليها طرح الموضوع.

جاسم كاد يطير صوابه من جمال صديقة وجاذبيّتها الطاغية، رغم أنّها لم تتفوّه بكلمة، وتركت الكلام لنوال على اعتبار أنّها تدري ماذا تفعل.

تجنّبت صديقة أن تتدخّل في الحديث مخافة أن تخطئ في شيء وتحرج نوال. أحسّت بعدم الارتياح من نظرات الرجل. عارفة ومتأكّدة أنّ الجمال الذي حطّ عليها دفعة واحدة كان السبب وراء النظرات الخاطفة التي مرّرها هذا الرجل الغريب على وجهها وجسدها، من غير أن تستقرّ عيناه في مكان. كانت

النظرات شرهة لزجة اشمأزّت منها صديقة، لكن لم تعلّق عليها كثيرًا في ذهنها. فبمجرّد أن ابتعد، رحلت نظراته معه آخذة معها الاشمئزاز.

في اليوم التالي تناولت صديقة الغداء مع البنات ونوال في الصالون، أصرّت نوال على صديقة أن تذهب بعد الغداء لأخذ قسط من الراحة في الشقّة، وطلبت إليها أن تعود في السادسة مساء، فأجابت صديقة: لكنّي لست تعبة. فأصرّت نوال مجدّدًا وأضافت عبارة هامسة كي لا تسمعها البنات الأخريات: حتى تتمكّني من السهر الليلة. من عادة جاسم أن يتأخّر في السهرة حين يُقيم حفلة ويجب أن ترتاحي حتى تستمتعي بها.

ـ أيّة سهرة ومن هو جاسم؟ أجابت صديقة مندهشة.

ـ ما بك. نسيت. الرجل الذي دعانا إلى بيته البارحة.

ـ ولكن أنا لا أذهب إلى سهرات. لست معتادة ثم إنّي...

لم تكمل وتلعثمت. لم تعرف صديقة أن تشرح نفسها. صديقة تربّت في بيئة محافظة ولم يكن موضوع السهر أو الحفلات واردًا أبدًا وهي تعيش في مخيّم! أقصى ما فكّرت به أو فعلته هو المشاركة في حفلات زفاف الأقارب والجيران.

لا تجادليني. لن أذهب لوحدي، ثم انسي ما اعتدت عليه أو لم تتعوّديه. هنا تبدئين حياة جديدة من نوع مختلف. البلد فيها أشياء ستبهرك والحفلات أحدها. ثم هل كنت معتادة على

تناول الطعام في المطاعم والفنادق؟ أنا مثلك ابنة المخيّم من عائلة فقيرة. جئت إلى هنا وأنا لا أعرف شيئًا، وتعلّمت هنا كيف أستمتع بالحياة وبكلّ الفرص التي أُتيحت أمامي. «يلّا بلا هبل»! كوني جديدة ومنفتحة. ثم... لا أحد يعرفك هنا و«حتى لو» سوف لن يتعرّف إليك! انظري في المرآة. هل تعرفين نفسك؟! هل تخيّلت أنّه يمكن لك أن تكوني جميلة إلى هذا الحدّ؟ نعم أنت جميلة لكن كنت تحتاجين لمن ينفض عنك الغبار حتى يظهر جمالك. بقي أن ننفض الغبار عن روحك وعقلك.. هيّا لا تضيّعي الوقت وتصرّفي ببساطة. أنا متأكّدة أنّك ستستمتعين.

ـ لكن..

لم تدعها تكمل، بل أخذت بيدها إلى الباب وهي تربّت على ظهرها بتحبّب. ذهبت صديقة منصاعة إلى الشقّة تفكّر بحديث نوال، وقالت لنفسها: ربّما معها حقّ. يجب أن لا أغلق الأبواب على نفسي. تكفي الجدران التي أُغلقت عليّ ومن حولي. ثم ماذا لو حضرت حفلة؟ أنا لا أعرف الرجل وأعرف كيف أضع حدًّا لأيّ تصرّف يزعجني. لم لا أجرّب نفسي؟

كان تفكيرها أبعد ما يكون عمّا يجري في أعماقها. كانت تحاول إقناع نفسها بشيء هي بالأساس غير راغبة به بل لا يعني لها شيئًا حُرمت منه وترغب بالحصول عليه. انصاعت وهي لا تعرف كيف؟! أو لماذا؟ كان مجرّد انصياع غير محسوب.

لم تنم فورًا. احتاجت لساعة أفاقت بعدها وتمطّت بعض الشيء في الفراش قبل أن تعود للصالون. لم تجد نوال هناك. كانت قد خرجت وأخبرت البنات أنّها تعود في الثامنة. في تلك الأثناء، كانت عبير تنظر إليها شزرًا، دون أن تدري صديقة السبب. كانت مغتاظة منها. أحسّت أنّ لهذه النظرات علاقة بذهابها مع نوال إلى الحفلة.

تأكّدت من إحساسها حين قالت سناء فجأة: هيّا إلى الحمّام المغربي يجب أن تستعدّي للحفلة.

ـ كمان مغربي.

ـ أوامر نوال.

ـ حسنًا.

خلعت ثيابها ولفّت نفسها بمنشفة كبيرة بعيدًا عن الأعين وحين انتهت قامت سناء بتصفيف شعرها وطلي أظافرها بلون أحمر غامق.

لم تكن صديقة تحبّ الأحمر. وحاولت أن تعترض فقالت سناء بمرارة: أوامر نوال.

لم تفهم صديقة لِمَ تتحدّث معها سناء بهذه الطريقة وقالت: ما بك سناء؟.. هل أنت غاضبة منّي؟ هل ضايقك أحد؟

ـ لا شيء.

لم تكتف سناء بالأحمر على أظافر صديقة بل وضعت على

شفتي صديقة أحمر شفاه أحمر. بعد أن انتهت من وضع الماكياج على وجهها، وضعت بعض البلاش على أعلى خدّيها. وما هي إلاّ دقائق قليلة حتى دخلت نوال وبيدها أكياس عديدة طلبت من صديقة أن تجرّب ما بداخلها.

ـ ما هذا؟ سألت صديقة.

ـ أشياء أحضرتها لك كي ترتديها في الحفلة. ساعديها يا سناء.

امتثلت سناء واصطحبت صديقة لغرفة التدليك بينما دخلت نوال إلى الحمّام المغربي. أخذته على عجل وخرجت لتصفّف شعرها هي الأخرى وتتزيّن وتستعدّ بدورها للحفلة.

فوجئت صديقة بما أحضرته نوال، خاصّةً بالثياب الداخليّة وفستان السهرة الأسود الطويل الذي يكشف كتفيها وأعلى صدرها وقالت لسناء: لا أستطيع ارتداء هذا الفستان! أخجل! لست معتادة!

لن تقبل نوال، ثم ستزعل منك إن رفضت هديّتها. ثم ما همّ؟! هنا لن يعرفك أحد، وتستطيعين أن تفعلي ما شئت وأن تلبسي ما تتمنّينه.

ـ ولكن ما شأن الملابس الداخليّة بالحفلة؟!

ـ هذه حمّالة صدر بدون أربطة كي تتماشى مع تصميم الفستان.

ـ لكن ما هذا؟

«الكيلوت»؟! ها ها ها.. ضحكت وتابعت: البسي ولا تعترضي. لم تَرَيْ شيئًا بعد.

كانت سناء تعرف ما ينتظر صديقة. لكنّها لم تتفوّه بكلمة كي لا تُثير شكوكها وتُثير غضب نوال.

كان «الكيلوت» عبارة عن رقعة صغيرة سوداء يتناسب لونها مع لون حمّالة الصدر والفستان. ولكن ما هذا الخيط الرفيع؟ سألت صديقة.

ـ إنّه string هكذا يسمّونه. سكسي. ألم تفهمي بعد؟!

لم تفهم صديقة، وقبل أن تحاول أن تفعل كانت سناء قد بدأت تساعدها وتعلّمها كيف تلبس هذه الأشياء. انصاعت صديقة لترى إلى أين سيأخذها المطاف. وحين ارتدت الملابس الداخليّة ونظرت في المرآة أعجبتها رشاقة جسدها والإثارة التي بدت عليه مع هذه الملابس، وكان لونها هو الأشدّ إثارة. شعرت بإحساس كبير بالرضا. ولكنّها حين ارتدت فستان السهرة مع الحذاء الأسود ذي الكعب العالي بدت كأنّها نجمة من نجمات هوليوود مع كتفيها العاريتين اللتين بالكاد يغطّيهما وشاح أسود من الحرير المطرّز بورود حمراء صغيرة متباعدة.

كان ذوق نوال رفيعًا رغم جمالها السوقي. عينان كبيرتان جاحظتان، مرسومتان بالكحل الأسود المائي. وجهها سمين

وخدودها منتفخة. شفتاها غليظتان مرسومتان بقلم تخطيط شفاه بنّي اللون، ووضعت أحمر شفاه نبيذيًّا فاقعًا وأظافرها مصبوغة بطلاء من لون أحمر الشفاه وأصابع طويلة ومنتفخة. رقبتها عريضة وصدرها عامر يظهر من فتحة بلوزة سوداء ضيّقة على جسد تغطّيه كتل شحم في أكثر من موضع عند الخصر والظهر. وقدماها مكتنزتان.

دخلت نوال فجأة لتطمئن على سير الأمور، فدهشت من تناسب الألوان مع جاذبيّة صديقة، وشعرت أنّها وُفّقت في ما رأته يناسب لون بشرتها السمراء ويجعلها أكثر إثارة للشهيّة. هي تعرف ذوق جاسم، فعلى الرّغم ممّا يبدو عليه من ثقل ظلّ لكنّه ذوّاق في ما يخصّ النساء والثياب. هكذا فكّرت نوال وأشرق وجهها بمجرّد أن رأت صديقة.

فقالت: ما شاء الله. ما شاء الله.

خجلت صديقة وابتسمت بحياء. لم تكن هي نفسها تتوقّع أن تبدو يومًا بهذا الجمال. كانت تعرف أنّها جميلة وكانت تشعر أنّها لو توفّر لها أن تلبس وتتزيّن مثل الممثّلات فستبدو أجمل منهنّ جميعًا. وهي كانت جميلة، حقًّا جميلة. كانت سعيدة بنفسها وبجمالها، ووقفت نوال تتأمّلها والحسرة تأكلها: «لو كان لي نصف جمالها لما احتجت أن أعمل قوّادة على الإطلاق». مرّت الفكرة سريعة، سرعان ما فكّرت بأخرى وهي أنّها الليلة ستطيّر عقل جاسم وتفرغ جيوبه وأرصدته. «عليّ أن أعرف كيف

أستخدم صديقة لجذبه وجعله مثل الخاتم في إصبعي لكن المهمّ هي الآن. أرجو ألاّ تفتعل المشاكل وتجري الأمور معها بشكل هادئ وسلس».

كانت نوال قد ارتدت ثياب سهرة فضفاضة لامعة لتخفي كتل الشحم تحتها. وكانت بكامل زينتها فقالت لصديقة: هيّا إلى العمل. ففوجئت صديقة بعبارتها: أيّ عمل؟

لا! أقصد السهرة.

وضحكت وغمزت سناء فامتقع وجه سناء وقالت في نفسها: الله يستر!

اصطحبت نوال صديقة وتأبّطت ذراعها كمن يتأبّط كنزًا وقع عليه من السماء، ولا يرغب أن يقاسمه إيّاه أحد.

نصف ساعة وكانتا أمام قصر كبير تُحيط به حديقة واسعة انتشرت في أرجائها أشجار النخيل، ومساحات من الورود والأزهار يحيط بها العشب الأخضر من كلّ جانب.

ما إن وصلتا إلى الصالة الكبيرة حتى هرع جاسم لملاقاتهما وعيناه لا تخفيان بريقًا ثعلبيًا أخاف صديقة، فتقوقعت في داخلها تحتمي من شيء تجهله لكنّها تحسّ به.

كان جاسم يرتدي الكندورة البيضاء الطويلة وعلى رأسه الغترة المعتادة تفوح منه رائحة دهن العود الممزوج بالمسك والعنبر وورد الطائف.

أهلاً أهلاً تفضّلا.

قال جاسم وأشار إلى أريكة مزركشة تتوسّط الصالة، على جانبها أرائك عديدة صُفّت بشكل مستطيل يجلس عليها رجال بعضهم يرتدون بزّات رسميّة مع «كرافات» والآخرون يرتدون الكندورة ويعتمرون الغترة، وفتيات يتوسّطن الرجال يبدون بأبهى حلّة.

منذ البداية جلس جاسم بقرب صديقة ولم يُخْفِ إعجابه بها حتى يقطع الطريق على أيّ ضيف في أن يفكّر فيها. تصرّف وكأنّها شيء يخصّه وحده. وأحسّت صديقة بالغرابة والخوف، ولكنّها بدل أن تعترض صمتت، وإن أعجبها أنّها سرقت أنظار الحاضرين.

تركتها نوال بعد دقائق لتسلّم على أحد ضيوف جاسم وكان يبدو على معرفة وثيقة بها. أحسّت صديقة بالحرج لوقوفها وحيدة ولكنّها قرّرت ألاّ تُشعر أحدًا بذلك، وحاولت أن تبدو متلائمة مع الوضع. كان الوقت يمرّ بطيئًا متثاقلاً عليها، كانت الساعة في صدر الصالة تشير إلى العاشرة حين اقترح عليها جاسم أن يقوما بجولة لتتعرّف إلى القصر. لم تستطع أن تمانع وظنّت أنّ ما يجري هو شيء طبيعي. وقبل أن يفعل تقدّم أحد الخدم منها يحمل صينيّة صُفّت عليها كؤوس الويسكي والنبيذ ومشروبات أخرى لم تر أيًّا منها من قبل إلاّ في الأفلام. سألها جاسم: ماذا تشربين؟

فقالت: لا شيء.

ـ لا! يجب أن تشربي شيئًا.

ـ لا أشرب الخمرة.

وما إن تفوّهت بهذه العبارة حتى شعرت أنّها تمثّل في فيلم بدأ للتوّ.

منذ تلك اللحظة استيقظت صديقة وأحسّت أنّ ما يحدث معها الآن، وما قد يحدث، يشبه إلى حدّ بعيد ما كانت تراه في الأفلام التي شاهدتها وهي تصوّر امرأة راشدة، أقرب إلى الفتاة المغمّضة التي لم تر شيئًا، وتبدو ساذجة يسهل الإيقاع بها، ولكنّها (صديقة) لم تكن كذلك.

ساعدتها مشاهدتها للأفلام على معرفة الكثير، لكنّ حياءها يوحي بسذاجة من نوع آخر. بشيء له علاقة ببراءة فطريّة ومتعمّدة في آن معًا. نظرت حولها تبحث عن نوال وهي تعرف أنّها لا تستطيع أن تعتمد عليها. فقط أرادت التأكّد من اكتمال المشهد فرأتها تساير شخصًا وتشرب معه الويسكي. حدس ما يقول إنّ مجيئها إلى هنا كان مدبّرًا. شيء ما في داخلها جعلها تحسّ أنّ هنالك شيئًا مريبًا. أحسّت بالخطر وتوقّعت أن تحدث تطوّرات، لم تكن تتوقّعها قبل أن تأتي إلى الحفلة، وإن كانت في أعماق أعماقها تحسّ بها.

كانت مسترسلة في أفكارها حين قاطعها جاسم قائلاً:

ـ تفضّلي، وقدّم لها كأسًا من الويسكي الممزوج بالماء. أرادت أن تعترض لكنّ الطريقة التي قدّم بها الكأس حملت من الإصرار ما جعلها تقبل كي لا يشعر أنّها تفهم، وكي تتمكّن من المناورة.

أمسكت الكأس بيد ترتعش ونظرت في عينيه مباشرةً كي توحي له بثقة في نفسها تجعلها تتمكّن من السيطرة على أيّ وضع تُقحم فيه، وهربت بعينيها كي تخفي القلق الذي بدأ ينبت كالصقيع في روحها. أحسّت بالبرد وبالوحشة.

حين نظرت في عيني جاسم ارتبك من غير أن يعرف سبب ارتباكه. دقّ قلبه. استغرب. هذه أوّل مرّة يدقّ قلبه لبائعة هوى.

فكّر ثم فكّر: لا تبدو هذه المرأة بائعة هوى، إنّها أشبه بأميرة أو نجمة سينما، أو نجمة عالية في سماء لا يسهل الوصول إليها إلاّ لمن اعتاد أن يقطف النجوم.. سأقطفها الليلة. حدّث نفسه.

لم تُدرك نوال المأزق الذي وضعت نفسها به، فهي أسرفت في إبراز جمال صديقة، وها هي أخذت بلبّ جاسم ويبدو أنّه سيقع في غرامها أو ربّما وقع. كانت تراها من بعيد محاطة بهالة آسرة من السحر والجاذبيّة أخافتها. لم يكن جاسم الوحيد الذي أُخذ بها، فها هي العيون تختلس النظر إليها، ولم تكن نوال محطّ اهتمام في أيّة حفلة اقتادت إليها إحدى بناتها كما هذه الحفلة. سايرها الجميع وخطبوا ودّها ورضاها.

يجب أن أتصرّف بسرعة. قالت لنفسها. في الوقت الذي

همّت أن تتوجّه إلى صديقة لتتّفق معها على طريقة للانسحاب وترك جاسم في أوج انبهاره وتعلّقه بصديقة، لتتمكّن من الإمساك بعنقه وإفراغ القدر الأكبر من جيوبه، وطبعًا إحكام القبضة على حركة صديقة واختياراتها. في هذا الوقت بالذات أمسك جاسم بيد صديقة بحنان وإصرار فاجأها وقال: تعالي لأعرّفك على أجنحة القصر. امتثلت صديقة لترى نهاية هذه اللعبة.

خسرت نوال زمام المبادرة، لأنّ أيّة حركة الآن تتعارض مع ما يرمي إليه جاسم ستجعلها تخسره. فكّرت نوال... وتردّدت.

فاجأها امتثال صديقة، إذ توقّعت أن تتصرّف صديقة على نحو مختلف، كأن تفتعل فضيحة أو ما شابه: هذه الشرم... كنت أعتقدها غبيّة بلهاء، يبدو أنّني أنا الغبيّة وحمقاء أيضًا.

جال جاسم ويده بيد صديقة أرجاء القصر بطوابقه الثلاثة. صديقة صامتة وفي حالة انتظار. ماذا بعد؟ وجاسم في حالة تأهّب للانقضاض. وكي يضمن السيطرة على فريسته انتبه أنّها لم تشرب شيئًا من الويسكي، فمدّ يده إلى الكأس، ومن غير أن ينتظر أيّة معارضة قرّبها من شفتيها فأخذت جرعة حين بلعتها شعرت بقشعريرة مريرة تجتاح جسدها. لحظها جاسم وازداد ارتباكه. ليست بائعة هوى، قال في نفسه وأسعده أن لا تكون، لكنّه خاف أيضًا. فما عساه يفعل الآن؟ كان معتادًا في حفلاته أن يستضيف بائعات هوى ويُجيد التصرّف معهنّ بوصفهنّ كذلك، ويقترب من غير أن يتوقّع أيّة مانعة، لكن ما يفعل الآن؟ وهل هي تدرك الغرض

من وجودها هنا؟ تساءل ولم يعد متأكّدًا من أنّ نوال أخبرتها، خاصّة بعد لقائه بها البارحة في المطعم.

أكيد لم تكن تعرف، وربّما لا تعرف الآن. فكّر جاسم.

كان السبب الوحيد الذي يعتقد أنّها محترفة ليس تظاهرها بالجهل بل لأنّها كانت تبدو ناضجة رغم أنّها تبدو أصغر من سنّها. لكنّه الآن لم يعد متأكّدًا. من عادة جاسم أن يحصل على ما يريد من غير أن يقلق رأسه، «ما بالي الآن؟» يسأل نفسه. لم يعرف كيف تفوّه بالسؤال:

ـ هل هذه أوّل مرّة لك؟

ـ نعم؟ لم أفهم. ماذا تقصد؟ أجابت صديقة.

ـ أقصد هل هذه أوّل حفلة تحضرينها؟

ـ نعم.

أجابت صديقة وكانت صادقة، وخجلت من الملابس التي لا تنمّ عن امرأة تحضر حفلة لأوّل مرّة، مع أناس لم يسبق لها أن عرفتهم.

ـ هل أخبرتك نوال عن مدى إعجابي بك؟

ـ لا.

قالت بحياء ولكنّها أرادت أن تكون «لا» تضع حدًّا لهذا الحديث المباغت.

ـ أقصد ألم تخبرك نوال عن رغبتي بك؟ ألم تخبرك الغرض من وجودك في بيتي؟

. . . لم تجب بل بدأت ترتعش فهي من كان يحتاج لطرح السؤال، وها هو الجواب يأتيها على غير توقّع. خافت وأرادت أن تحتمي، لكن بمن. بنوال التي أحضرتها إلى هذا الرجل الذي يشبه البزّاقة. ما إن ترتمي نظراته على وجهها وجسدها حتى تشعر باللزوجة والاشمئزاز.

هل تحتمي بمن في القصر وكلّهم بالتأكيد إمّا أصدقاء لجاسم أو خدم لديه أو متواطئون معه؟ لم يبق غير جاسم نفسه تحتمي به. وممّن؟ من جاسم؟ أم من نوال؟ أم من اهتزاز الأرض تحت قدميها. قدمان لا تدركان في أيّ طريق تسيران.

وها هي النجدة أتت على شكل فكرة في بحر متلاطم. جاءت على لسان جاسم الذئب نفسه الذي يرغب في افتراسها، فقال: أنت جميلة. جميلة جدًّا. لم أر جمالاً بهذا النقاء ولا أرغب أن أشوّه نقاءه. أعرف أنّ نوال لن تتركك بسلام إن عارضت ما أودّ أن أطرحه عليك. أنا معجب بك ومستعدّ أن أوفّر لك ما تريدين من حياة مرفّهة شرط ألاّ تكوني لغيري. شرط أن تكوني لي وحدي. سأتّفق مع نوال على أن تدعك وشأنك. أن تدعك لي وحدي، ولكن لا أستطيع ولا أريد أن أتّفق معها قبل أن أسمع منك موافقتك.

حاول جاسم أن يبدو رقيقًا. كان متحمّسًا لها ويرغب بها ولا

يحتمل أن تنتقل من يده إلى يد أخرى. يريدها له. له وحده. على الأقلّ إلى الحدّ الذي تبقى جذوة الرغبة مشتعلة فيه.

تذكّرت صديقة على الفور شهرزاد في حكاية ألف ليلة وليلة. تذكّرت كيف عقدت شهرزاد العزم أن تبقى حيّة بمسايرة شهريار ليلة بعد أخرى حتى تنقذ نفسها من موت محتّم. وهي الآن غريبة في بلاد غريبة لا تعرف فيها أحدًا ينقذها ممّا قد تتعرّض له من أذيّة. غريبة أكثر ممّا كان ليل شهرزاد غريبًا. منذ أن قرّرت المجيء إلى مدينة دبي وهي تشعر أنّها تسير في المجهول. وها هي لم يمض على وجودها أكثر من ثلاثة أيّام أحسّتها دهرًا من شدّة ما تقاذفتها أفكارها، وها هي تشعر أنّ المجهول على وشك ملامستها. ها هو يكشّر عن أنياب تلتمع بالبسمات لكن لم تتوقّع أن تتواجه معه بهذه السرعة، ولا أيضًا بهذه الطريقة. خافت أن يحمل المجهول أشياء أخرى كالفشل في العمل أو الصعوبة في العيش بمفردها. في المخيّم كانت تسير نحو المجهول أيضًا، مجهول من نوع آخر وليس سافرًا إلى هذه الدرجة. في تلك اللحظة أحسّت أنّ المجهول سيظلّ يلازمها وانقبض قلبها وشعرت أنّها وحيدة محاصرة وعلى وشك الانهيار وبدأت قدماها ترتعشان والصقيع يغزو أوصالها. لكنّها قرّرت بعد طول ارتعاش أن لا تدع أحدًا يشعر بخوفها إلى أن تفكّر بطريقة ما تعيد فيها ترتيب الوضع واتّخاذ موقف. كان عليها أن تفكّر بسرعة. وأن تقرّر بمفردها. في المخيّم لم تجد من يمدّ لها يد المساعدة من أبناء بلدها، فلِمَ قد تجدها هنا؟

حتىَ إخوتها وأقاربها لم يكترثوا لأمرها ولِمَا يحصل لها. لم تستطع أن تجيب على ما يقترحه جاسم عليها بالموافقة. صمتت. صمتت أكثر ممّا يمكن للصمت أن يصمت، وغادرت روحها إلى أعماقها. فكّرت بكلّ ما فعلته نوال لأجلها. فهمت سرّ طيبتها واهتمامها. ظنّت أحيانًا أنّها إنّما تهتمّ بها لأنّها مثلها عانت الكثير. لكن لا. أحيانًا ظنّت أنّ اهتمام نوال بإبراز جمالها هو جزء من ضرورات العمل. خاصّة أنّ الأخريات كنّ يبدون جميلات أيضًا في ثياب جميلة. نوع من الإكسسوار مثل أيّة قطعة ديكور داخل الصالون. أحيانًا أرادت أن تصدّق طيبتها. أحيانًا ظنّت أنّها تحاول تخفيف صدمة الغربة عنها، فلربّما وقعت هي بالصدمة نفسها حين أتت إلى هنا. امتدّ الصمت ليبتلع الردهة التي كانا يقفان فيها. جاسم ممسك بيد صديقة، وصديقة ساهمة في أفكارها. مرّ شريط سريع في مخيّلتها عبره أبو طارق بدفتر شيكاته، وصبحي بوجهه الأصفر وفاطمة بسذاجتها القاتلة وقلّة حيلتها وضعفها، بالأفواه الجائعة التي تنتظر من يطعمها، بأطباق أمّ صالح الشهيّة، بكومة البراز التي كادت تدوسها وهي تحاول الخروج من مرحاض المخيّم، بالتقلّب على الفراش والغرفة الضيّقة التي لم تعد تتّسع لخطواتها الليليّة، بوالدتها المريضة المشرفة على الموت، بالمرآة التي كسرتها حين نظرت لترى نفسها فوجدت وجهًا لا تعرفه وحين مزّقته قرّرت أن تصنع منه وجهًا جديدًا من غير أن تُدرك ملامح هذا الوجه الجديد. كلّ ما كانت تعرفه هو أنّها

سوف تصنع نفسها من جديد. سوف تلد صديقة جديدة، صديقة تشعر معها أنّها أقلّ ألمًا وأقسى. أقسى من القساوة التي غمرتها بالمرارة حتى لم تعد تعرف العيش خارجها. بعيدًا عنها. حين كسرت المرآة كانت قد اتّخذت قرارها: سأعلو على الألم والقساوة. وكلّما اشتدّت حدّتها سأعلو عليها بقساوة أكبر وسأدفن الألم في داخلي.

أخرجها جاسم مجدّدًا من صمتها وسأل مجدّدًا: أتوافقين؟

أطرقت لتخفي دمعتين تجمّعتا في عينيها كبقعتي مياه كبيرتين فانسكبتا إلى الأرض وانفجرت تهطل وتهطل ويهتزّ جسدها تحت وطأة الغزارة. ما ظنّه جاسم ضعفًا أثاره، كان أشبه بمخاض عسير أصاب صديقة حين قرّرت أن تلد نفسها من رحم هذه اللحظة الباردة.

أمسك بيديها ثم تحرّك نحو ذقنها، رفعها بيد ومسح باليد الأخرى دموعها، فأثارته سخونتها، اقترب من غير أن يقرّر سلفًا من وجهها يرغب في تقبيلها فأشاحت قائلة: موافقة، لكن ليس الآن. ليس الليلة. وهي ما تزال تفكّر في طريقة تتملّص منها من هذا الموقف بل من وضعها كلّه.

فقال جاسم متظاهرًا بالقبول والاستسلام: ماذا ستقولين لنوال؟

ـ لا أعرف. أجابت صديقة بغضب حاولت أن تكبته لكن لم يخف على جاسم.

فقال لها: لا تخافي منها. لديّ من المال والنفوذ ما يكفي لإسكاتها.

لم تفهم صديقة قصده. وقبل أن تحاول أن تفهم منه سارع إلى القول: هيّا، وقد أمسك بيدها بقوّة. شعرت أنّه يقترب أكثر وقد لفّ ذراعه حول كتفها ونزل بها إلى الصالة. هناك كان القلق ينهش نوال. ما إن رأتهما حتى اقتربت وقالت: أين أنتما؟

فأجاب جاسم: هيام تعبة وأقترح أن تبيت الليلة هنا. انسي أمرها من الآن فصاعدًا. فوجئت صديقة باعتداده بنفسه وخافت. خافت أكثر من ردّة فعل نوال إذ كانت ما تزال تعتقد أنّ بإمكانها الاعتماد عليها أو مراوغة الاثنين، لكنّ ميزان القوى بينهما كان جليًّا. لم تصدّق الجبن الذي بدا على نوال..

نظرت نوال إلى صديقة مذهولة، وقالت متلعثمة: بـ.. بهذه السرعة؟

واصطنعت السرور. صديقة ظلّت صامتة وتحدّق بعيني نوال بقسوة: ماذا؟ أليس هذا ما كنت ترغبينه لي؟

تظاهرت نوال أنّها لم تفهم ولكنّ لهجة صديقة كانت واضحة. كشفت أمرها وانتهى الأمر وقرّرت أن تتصرّف معها على هذا الأساس.

تمنّت نوال في هذه اللحظة أن تقول صديقة لا. أن تعترض لتعطيها فرصة التدخّل. لم تجب صديقة وظلّت صامتة، وتدير

عينيها في كلّ الاتّجاهات. عندها عرفت نوال أنّ الأمور ستفلت من يدها لا محالة، وما خافت منه وقع. صديقة لم تكن تعرف كيف ستتصرّف مع جاسم، لكنّ غضبها على نوال طغى على أيّ شيء آخر، خاصّة أنّها كانت تحسّ في أعماقها أنّها عالقة، وحتى نوال لم تكن لتتمكّن من فعل شيء. هي تجيد قراءة الرغبة في عيون أيّ رجل، ورأت كم كانت رغبة جاسم فيها جامحة، عارمة وجارفة، بل ربّما مميتة. هكذا فكّرت صديقة وتمكّنت بثوان معدودة من تقييم الوضع واتّباع المثل القائل: «الإيد اللّي ما فيك تكسرها بوسها وادعي عليها بالكسر». ونوال غريبة بقدر ما هو جاسم غريب، وهي لن تستطيع أن تردعه عنها. نوال خدعتها منذ البداية وقالت مصفّفة شعر! خطّطت معه على جهل منّي ولكنّ الجشع هو ما يحرّكها الآن. فكّرت صديقة.

ـ هي تحاول أن تستأثر بي أمامه ليدفع أكثر. كان الأمر شديد الوضوح بينهما، هي الضحيّة بينهما. لا! لن أكون ضحيّة لأحد.

استسلمت نوال لمشيئة جاسم، ولكنّها أرادت أن تحصل على ما اعتبرته حصّتها، فنظرت إلى جاسم نظرة فهم مرادها فسارع إلى القول: ما تريدين!

فنظرت نوال بغضب: اتّصل بي في الغد. اقتربت من صديقة تودّ أن تسحبها جانبًا، فأمسك جاسم بيدها معترضًا: ماذا تريدين منها؟

أرغب في التحدّث إلى هيام لدقيقة. فقالت صديقة وقد فكّت

عقدة لسانها وهي تنظر إلى جاسم: لا بأس. .

ما إن انفردت نوال بصديقة حتى قالت لها على الفور: لم تضيّعي وقتك وأنا من كنت أظنّك قطّة مغمّضة.

فنظرت صديقة بقلب يملأه الكره والغضب وقالت: أليس هذا ما كنت تخطّطين له؟ لماذا أنت غاضبة؟

عندها أحسّت نوال أنّ عليها ألاّ تضيّع على نفسها ما مَنّت نفسها أن تكسبه من وراء صديقة والآمال التي عقدتها عليها، فاصطنعت الرقّة وقالت: كنت أعدّك لتصبحي الأغلى ولكي تكوني الأغلى عليك أن تتمنّعي وتتركي للذئاب أن يتنافسوا عليك فيدفعوا أكثر. ولكي يتنافسوا عليك، عليّ أنا أن أشعل الحريق وأقود الحرب في ما بينهم. أنت لا تعرفين ما قد يحصل إن تركت بيضك في سلّة واحدة. إنّها الكارثة. ستصبحين في الشارع ما إن يملّ منك. .

ـ أَوَلَسْتُ في الشارع الآن؟ لطالما كنت في الشارع. ما الفرق بين الشارع هنا والشارع هناك في الغرفة الضيّقة والأزقّة الضيّقة والبقاء المملّ في المجهول؟ لا فرق. أنت نفسك في الشارع الآن. أنت نفسك ابنة شوارع. هنا في هذه المدينة الصاخبة وهناك في المخيّم الضيّق. البيت الضيّق الذي نتوهّم أنّه يؤوينا ويحمينا. انظري أنا كم مرّة اضطررت لمغادرة مخيّم إثر مخيّم والشارع في كلّ مرّة بانتظاري. أكان غرفة أو زقاقًا أو مخيّمًا أو مدينة. إنّه الشارع. أكان ضيّقًا أم واسعًا أم نظيفًا أم متّسخًا يبقى شارعًا مشرّعًا على شوارع أخرى لا تنتهي. أكان الشارع في لبنان أو دبي

أو أميركا أو كندا أو السويد أو أو. . يمكن حتى لو عدنا إلى فلسطين سنبقى في الشوارع. طالما أنا امرأة وأنت امرأة لا مكان لنا في هذا العالم سوى الشارع نُقذف إليه، أو نبقى مهدّدات على الدوام في أن نُقذف إليه. لكنّ ما يغيظني هو أن تفعلي بي هذا، أنت بالذات، وليس هذا القرد الذي أحضرته لي.

لم تفهم نوال شيئًا ممّا قالته صديقة وحاولت أن تخبرها أنّها تفاجأت بوجود أشخاص أهمّ من جاسم في الحفلة، وأكثر ثراء منه وأشدّ أعجابًا بها. لكنّ صديقة تابعت الكلام ولم تكن مستعدّة لتقبّل أعذارها، بل كانت الأعذار تزيدها غضبًا وقساوة. صديقة لم تعرف من أين يصعد كلّ هذا الكلام، لكنّ ما كانت تعرفه ومتأكّدة منه هو أنّ المرارة ستلاحقها أينما حلّت، فقرّرت أن تعيش في ظلّ المرارة وأن تكون من الآن فصاعدًا مُرّة. كيف؟ لا تعرف.

أحجمت نوال عن الضغط على صديقة وقرّرت أن تسايرها. لا تعرف لماذا. ربّما لأنّها شعرت بقوّة المرارة التي تحرّك صديقة ولم تجد ما تقوله لها سوى ما يجعلها الملجأ الذي تحتمي به صديقة ساعة تنسدّ الدنيا في وجهها. تعلّمت نوال ألاّ تقطع شعرة معاوية مع أحد. لكنّها الآن تجد نفسها أنّها تحتاج لأن تُبقي على قناة بينها وبين صديقة، فحاولت أن تُسدي لها نصيحة وقالت: انتبهي. لا تعطيه كلّ شيء. بل على دفعات كي تظلّي معه أطول فترة ممكنة. وحين يبصقك خذي هذا عنواني ورقم هاتفي. كادت أن تصفعها

لكنّ غرابة ما يحدث جعلتها تظنّ أنّها تعيش كابوسًا لا بدّ ستفيق منه بعد لحظات.

أخذت صديقة البطاقة من يد نوال لتنهي هذا الحديث العقيم، واقترحت عليها أن تغادر. فوجئت نوال بوقاحة صديقة بل كانت مندهشة تمامًا.

ودّعت جاسم قائلة: لقد وعدتني!

فأجاب: وأنا عند وعدي.

في اليوم التالي، جاء أحد سائقي جاسم إلى منزل نوال وسلّمها مغلّفًا يحوي مائة ألف. لم تصدّق نوال عينيها، كانت تتوقّع خمسين ألفًا لا أكثر كأقصى ما اعتقدت أنّها ستحصل عليه.

وفي تلك اللحظة اتّصل بها جاسم ليقول: ستحصلين على مبلغ مماثل إن بقيت بعيدة عنها.

لم تعرف صديقة في تلك الليلة ما ينتظرها. كانت تدرك أنّها تسير إلى المجهول، ولكنّ ذلك لم يعد يخيفها، فقد بلغت الحياة فيها الآن أقصى ما انتظرته منها. هي اعتادت أن تسير في المجهول ولن يشكّل جاسم سوى فرق طفيف. مجهول من نوع مختلف. أقلّه أنّه أقلّ قسوة من دفتر شيكات أبو طارق. أقلّه أنّه أكثر منطقيّة منه بل ربّما أكثر عقلانيّة. وإن كان لا بدّ من الأمر فلتقم به على طريقتها.

فكّرت. ولكنّها لا تعرف كيف تتصرّف كمومس. كانت

المعرفة الوحيدة التي تمتلكها عن حياة المومسات توفّرت لها عبر الأفلام، والأفلام كانت تصوّر حياتهنّ مقيتة وتدعو للاشمئزاز.

أتت ساعة الصفر في حياة صديقة كمومس، ارتعبت وهي تدخل غرفة نوم واسعة جدًّا يتوسّطها سرير واسع بدا أكثر اتّساعًا من الغرفة الضيّقة في المخيّم. سرير غطّته ملاءات مزركشة في فوضى من الألوان. لكنّها فوضى تبعث في النفس إحساسًا بالأناقة. فاللون الأزرق الذي يغلب عليها جعلها تشعر بزرقة البحر الذي طالما حلمت أن تُغرق نفسها في لجّته، وها هي الآن في مواجهة الغرق وحيدة. جسدها يرتعش بالرهبة وغرابة الموقف الذي زُجّت فيه، وما من شيء يستطيع الآن أن يعيد الزمن بها إلى الوراء. وأيّ وراء تعود إليه. لا! فكّرت ونظرت خلسة إلى جاسم الذي أحسّ بخوفها وأثاره ارتعاش صوتها وهي تسأله عن كوب ماء لتعبر إلى مجهوله رويدًا رويدًا.

تقدّم منها جاسم ومرّر يديه على وجهها كي يطمئنها قليلاً أنّه ليس الوحش الذي تعتقد. خافت أكثر، وزاده ارتعاشها وتهدّج صوتها هيجانًا وهي تكرّر: أريد كوبًا من الماء لو سمحت. كأنّما لم يسمعها، وتابعت أصابعه تلمّس رقبتها فكتفيها العاريتين، وسقط الوشاح عنهما إلى الأرض. تسمّرت تنتظر الخطوة التالية. كانت يداه باردتين، زادت من برودتهما اللزوجة التي تنبعث من نظراته. لفّ ذراعيه حول خصرها وشدّها إليه، فشعرت بثقل غريب يغمر روحها، فعادت بها الذاكرة إلى سنواتها الأخيرة مع أحمد حين صار يأتي إليها من الجبهة ليضع كلّ غيابه في أحشائها من غير أن

يعطيها فرصة أن تشتعل على مهل. صارت مع الوقت تشعر به يربض عليها بثقل لا تستطيع الفكاك منه. تحوّل الحبّ إلى واجب زوجي غليظ يميتها ببطء. في البداية كانت تُشفق عليه من ضيق الوقت والمكان فتحمّلت، ولكن حين تكرّر المشهد، لم تعد قادرة على الشفقة، صارت تُبدي انزعاجها أو تتذرّع حينًا بأمّه أو بإرضاع ابنها، فيتوتّر ويتشاجر معها بصمت، ويغادر إلى الجبهة حين يطلع الصباح ليتركها فريسة لإحساس بالذنب يأكلها. لم تعرف متى بدأت تنشأ علاقة من طرف واحد. صار يأتي إليها محتقنًا يفرغ في أحشائها بسرعة ويتركها معلّقة في فراغ الحرمان. حرمان عاطفي صار يتّسع ويغلق عليها أيّة بارقة حنان محتملة تصدر عنه. مع الوقت صارت تفصل جسدها عن روحها كي تحتمل ثقله، وتحلّق في داخلها إلى أرض بعيدة تخبّئ فيها روحها وإحساسها بالغربة، تضعهما هناك ولا يبقى بين ذراعي أحمد إلاّ الجسد. هو كان يأتي وهي تغيب. وحين يغيب بقربها في النوم أو في الجبهة كانت صديقة تستحضر روحها من تلك الأرض البعيدة الغريبة، وتداعب جسدها وتتألّق وحدها غريبة في حياة غريبة تستعيد فيها لحظاتها الأولى مع أحمد حين كان يأخذها وهي واقفة. كان ما إن يحتضنها بجسده حتى ترتعش باللذّة والانبهار. كانا يأتيان معًا ويذهبان معًا ويتألّقان معًا. مع أنّ ضيق الوقت كان أكبر ممّا هو بعد زواجهما. مع أنّهما كانا على عجلة من أمرهما في البداية. كان يعرف كيف يأخذها وتأخذه. مع أنّ أمّه كانت قادرة على مداهمتهما في أيّة لحظة، لم تفعل.

بعدما تزوّجا صارت تفسح لهما الوقت والمكان في النهار

لكي يفعلا ما لم يستطيعاه بقربها في الليل. كان أيضًا يفرغ في أحشائها على عجل أو هي تدعه يفعل خشية أن تباغتهما فاطمة أو ضوضاء التفاصيل التي تجري وراء باب الغرفة أو على الطرف الآخر من جدارها.

الآن تملك المتّسع من الوقت والمكان، ولا تشغلها أيّة ضوضاء عن الاستمتاع، ولا يوجد خلف الجدار من سيسمع تأوّهاتها. فالقصر خال إلاّ من جاسم، والخدم بعيدون في مساكن في الفناء الخلفي للقصر. لكن كيف تزيح هذه اللزوجة الممتدّة من عيني جاسم والتي تزحف على جسدها ولا يعود بمقدورها نزعها عن روحها. فاللزوجة كانت من الكثافة بحيث ألصقت جسدها بروحها، ولم يعد بالإمكان أن ترحل بروحها إلى تلك الأرض البعيدة الغريبة لتخبّئها وتحيي عزلة الجسد وغربة الروح التي أتقنتها لسنوات وسنوات. لا تعرف صديقة كيف صار جسد جاسم العاري يتمرّغ على جسدها المثقل بالتقزّز. أرادت أن تصرخ. أن تعود عن قرارها. أن تقطع الصحراء عارية القدمين وتجري إلى حيث لا اسم أو حدود أو سدود، إلى حيث شجرة التين الكبيرة أمام بيت والدتها التي كانت تتفيّأ بظلالها ساعات الظهيرة وتقطف الأكواز المندّاة بالحليب التينيّ. تمنّت لو تذهب إليها، وتمسح بذلك الحليب عينيها وأذنيها وأنفها وجسدها ولسانها بحيث تفقد بصرها وسمعها وقدرتها على تنشّق رائحة اللزوجة، ويفقد جسدها القدرة على الإحساس ولا يعود بمقدور المرارة أن تتلبّس لسانها. رغبت أن تُصاب حواسّها بالصمم كي تحتمل لزوجة جاسم، ولكنّ القرف

تلبّسها ففقدت القدرة على التركيز في إرسال روحها بعيدًا كي تظلّ نقيّة معفاة من الثقل. كان جاسم ملتهبًا حارًّا مجنونًا بها. فظنّت أنّها سرعان ما تتخلّص من ثقله وتوقّعت أن يأتي سريعًا، لكن. لا. لم تعرف السبب. ظنّت أنّه يحاول إطالة أمد الهياج واستغربت قدرته على ضبط وصوله. نصف ساعة كانت قد مرّت وهو يتمرّغ على جسدها كثور هائج. كان صراخه أشبه بزئير مدوّ أطلقها من سجن المرارة والتفاصيل المستعادة، فأسرتها اللحظة الراهنة. كانت مذهولة بحيوانيّته المفرطة في تقبيلها ومداعبتها، مندهشة من موجات الإثارة التي بدأت تغزو جسدها كلّه وتشعله برغبة بدائيّة أبعدت روحها إلى أبعد ممّا كانت تحلم أن ترسلها.

باغتها هياجها، وشعرت بانحطاط الرغبة يغزوها. رغبة سافرة مطلقة، عارية من أيّ سؤال سوى إلحاح الغريزة البدائي. حاصر تضاريسها برغبته، فاشتعل أتّون الرغبة في داخلها وانصاعت للّزوجة بوحشيّة مجرّدة عن إنسانيّة الجسد المستباح. صارت اللزوجة ضروريّة كي ينتشي الجسد في سعيه للوصول. تعطّل عقلها تمامًا، وصارت نارًا وحريقًا يستعر في أنحائها المتفجّرة.

في اللحظات القليلة التي حاولت فيها أن تركّز قليلاً لتفهم، أخذها السعار إلى حيث يشتهي الجسد المحترق باللذّة. كان استعار جاسم يؤجّجها، وتذكّرت إذ ذاك مشهدًا لقطّة في المخيّم، لم تستطع أن تفلت من هياج قطّ هاجمها فاستسلمت. يومها أثارها المشهد، وها هي تشعر أنّها قطّة لم تتمكّن من الإفلات لأنّها لم

ترغب أن تفلت بل انساقت إلى الرغبة كقدر وحيد خال ومحتوم إلاّ من الرغبة. أخذت تصرخ بوحشيّة فاقت صراخ جاسم ودوّى القصر بتأوّهاتهما وصراخهما. ولم تأبه أو تحاول ضبط هياجها. أحسّت أنّها تنقاد إلى وحشيّة تموّجاته على جسدها المنتشر في غابات عذراء لم تزرها من قبل، فانفجرت بالشهوة وتحوّلت إلى حطام يتشظّى إلى ما لا نهاية على إيقاع صرخة جاسم تعلن لحظة وصوله.

جاسم كان مذهولاً. لم تكن الأميرة التي اعتقدها ولا نجمة يصعب الوصول إليها. كانت جنّيّة أطبقت فكّيها على جسده الذي ظنّ منذ بعض الوقت أنّه مات وجفّ. وها هي من ظنّها فتاة بريئة تسحب سوائله من كلّ أنحاء جسده وتعصره إلى آخر قطرة من مائه. شعر أنّها وحش يستيقظ من سبات دام آلاف السنين. خاف. انبسط. لا. خاف.

مثل الحيوانة...

كانت صديقة تمارس طقوس الخصوصيّة ليس في المرحاض وحده، بل في الحيّز الكامل لشقّتها الصغيرة ولحياتها التي صارت، مذ أتت إلى دبي، تشبه إلى حدّ بعيد فضاءً مطلقًا للخصوصيّة طالما هي بعيدة عن أعين الناس.

عاشت في عزلة تامّة فوجدت نفسها في صحراء قاحلة تغزو قلبها المترع بالأحزان والالتباس. صحراء تمتدّ من القلب وتتلاقى مع جزر صحراويّة تُحيط بها ناطحات سحاب من كلّ جانب. ناطحات سحاب مضاءة بألوان شتّى، لا تشبه أضواؤها البرق الذي شقّ عتمة ليل فاطمة الطويل ذات ليلة في المرحاض. كانت خصوصيّة من نوع غريب، أشبه بخريف يندلع من فراغ لا من عري واصفرار. سرعان ما تحوّلت الخصوصيّة مع الوقت إلى وحشة قارصة. فقدت معها الإحساس بنفسها. ما إن تخلو إلى نفسها في شقّتها الصغيرة حتى تبدأ رحلة البحث عن النفس. كانت تتساءل كيف تجد نفسها وهي جالسة إلى نفسها؟ ألا يجدر بها أن تبحث

عنها وسط الجموع؟ لذلك راحت تزجّ بنفسها أحيانًا في مركز تجاري حتى تجدها. لكن سرعان ما تكتشف أن لا علاقة لهذه الجموع بها، فهي خليط من أجناس وأعراق وثقافات تجمّعت على بقعة من الأرض هدفها جني المال وتحقيق الثروة. هدف يفتقد لأيّة خلفيّة مشتركة يمكن أن تشكّل وفقها الجموع.

استسلمت بعد حين للاّجدوى. لم تكن تكلّم أحدًا أو تسعى للتعرّف إلى أحد، لولا أنّها واظبت بعد حين على الخروج إلى المراكز التجاريّة لتندسّ وسط الجموع ذاتها كلّ يوم لتبحث عن زبون تؤنس وحدته. هكذا كانت تسمّي عملها: مؤانسة! تندسّ بين أجساد متكدّسة تسير بينها كمومياء. تأكل وتعمل وتنام بغير هدف حقيقي مدرك سلفًا، وترى أنّها لا تختلف عنها في شيء.

«مثل الحيوانة كنت وسأبقى. كنت لا آكل ولا أنام ولا أعمل. الآن آكل وأنام وأعمل لكنّي لا أصل إلى مكان. ما الذي يحدث لي؟ هل لأنّي بعيدة عن أولادي؟ هل لأنّه لا يوجد رجل يكترث إلاّ لجسدي؟». أم تراها الغرابة تتلبّسها؟ كانت تشعر بالالتباس، ولا تستطيع تفسيره أو ربطه بأيّ شعور آخر. لا تفهم وما تزال لا تفهم.. لا هنا، ولا هناك في مخيّم أوزو. لا هنا وربّما ولا في أيّ هناك في العالم، هل لأنّني بدون وطن؟ سألت نفسها.. وطن! أنا أخرّف! لم أكن وطنيّة أبدًا. ولم يهمّني يومًا أن أعود إلى فلسطين أو لا أعود. كلّ ما همّني ألاّ أحتاج لأحد. لكنّي كنت دائمًا محتاجة، كنت محتاجة ولم يساعدني أحد. لا

أحد يستطيع مساعدة أحد. لم أكن أتذمّر. كنت أفهم أنّ الكلّ كان بحاجة للمساعدة. كلّنا مساكين، حتى الذين ذهبوا إلى الخليج، وها أنا واحدة منهم جئت لأساعد نفسي. جئت لأُعيل أولادي حتى لا يحتاجوا إلى أحد أو يضطرّوا للجوء إلى خيارات مذلّة.. لكن ماذا لو عرفوا أنّي بائعة هوى، أجوب العالم من جنسيّة إلى أخرى على بقعة صغيرة لا تدور حول نفسها ولا حول الشمس. أقف في الفراغ والالتباس وكأنّه كان ينقصني المزيد من اللاوضوح.

هنا في هذه البقعة التي تتربّع وسط الصحراء وتتلألأ بالأضواء. هنا في هذه البقعة التي تجتاح خريف العالم ولا جدواه صارت صديقة تبيع الهوى. في هذه البقعة التي يمكنك أن تبيع فيها كلّ شيء وتشتري أيّ شيء. في هذه البقعة التي هوت كشراع مكسور على رأس صديقة فتبدّدت وأضاعت البوصلة لهدف لم تعد تدركه أو تعنيه. المدينة التي تشدّق الكثيرون ممّن تسامرت معهم على أسرّة البغي والمجون بوصفها مدينة مزيّفة، صارت تراها صديقة أقرب ما تكون للحقيقة. مع الوقت، بدأت تسخر من تشدّقهم وترى المدينة بعين أخرى. لم ترها يومًا مزيّفة. لم تفهم ماذا يعنون. هل يريدون أن يسوّرها الفقر وأحزمة البؤس حتى تصبح حقيقيّة بنظرهم؟ لم تفهم ولم ترغب في أن تشغل رأسها بهذا الهراء المفتعل. فالمدن يصنعها الناس، وهي حاضرة ملتبسة تتلمّس الطريق إلى السماء. لكنّ أخلاق الناس تغيّرت والمشكلة ليست في المدينة بل بالأخلاق التي صارت مبهمة. يتحدّثون عن الأخلاق ولا يعيشونها إلاّ كديكور للرياء

الاجتماعي وأسلوب لطيف لكسب المال.

ـ المدينة مثل المرأة ترغب في أن تبدو جميلة كي تسعد بنفسها حين تنظر في المرآة. فكّرت صديقة!

كانت ترى الأشياء كما هي من غير إضافات وهميّة من بنات أفكارها. وهي كانت تسمع ما يُقال عن المدينة وترى الصورة معكوسة.

ـ ليست المدينة مزيّفة! قالت لـ «سعد» أحد زبائنها العرب الذي كان يشتري وقتها للمؤانسة فقط.

ـ إنّها ليست مدينة أفلاطون ربّما، لكنّها حقيقيّة وواقعيّة أكثر منك ومنّي. ألا ترى؟ انظر إلى مدننا العربيّة كيف شاخت وتبهدلت من الهزائم. وإلاّ أخبرني لماذا أتيت لتستثمر أموالك فيها عوض أن تفعل في مدينتك الخاصّة. بصراحة اتّهامك للمدينة أنّها مزيّفة مجحف. إنّه تبرير واه. ما المشكلة بأبراجها؟ هل تعجبك مدن الصفيح أكثر؟ أم تفضّل العيش بين المقابر؟ ألا ترى أنّ قولك هذا مجاف للواقع وفيه الكثير من الادّعاء والغرور؟ وربّما الحسد؟ أنا لا أعنيك شخصيًّا. هذه الأسطوانة سمعتها من الأجانب أكثر من العرب. ولم أفهم. الآن فهمت. لا أعرف كيف فهمت. أشرق قلبي ذات يوم حين سافرت مع سيّدة إماراتيّة إلى لندن استضافتني وكنت أصفّف لها شعرها وشعر بناتها. اشتقت حينها إلى دبي وعدت إليها وأنا ملهوفة. هنا الحياة أسهل وليست بها تعقيدات. ماذا أريد غير ذلك؟ أعتقد أنّها كشفت عورات الكثير من المدن

حين تجرّأت أن تصنع نفسها واحتضنت القادمين من مدن فشلوا في أن يبقوها جميلة وجديدة.

ـ كلّ كلامهم عن الزيف حسد بحسد. اسمع منّي وصدّقني.

إنّها أشبه بامرأة متعدّدة ومتجدّدة. مغناج وصلبة. رقيقة ومتوحّشة. متحرّرة ورصينة إلى الدرجة التي تسمح لأيّ كان أن يعيش فيها وفق ما يشتهي، طالما لا يخالف القانون أو على الأقلّ علانيّة. قالت صديقة: على الأقلّ قدّمت الفرص لكثير من العاطلين عن العمل في كثير من دول العالم. إن كان ثمّة من زيف يهدّد هذه المدينة فهم من تركوا وطنًا جائعًا وراءهم، أو محتلاً، أو أسرة لم يستطيعوا إنجاحها وإسعادها وتلبّسوا الزيف والادّعاء وبجّلوا مدنهم كمن يبجّل ميّتًا حين يبدأ الناس بالتكلّم عنه بالحسنى. ربّما لإحساس عميق بذنب ارتكبوه بحقّه. المدينة فتحت أبوابها للجميع لتستقبل عري المدن الأخرى وليس كثيرًا عليها ذات يوم أن تصير أمّ المدن. لم تكن صديقة متحمّسة للمدينة بقدر ما كانت متحمّسة لتعرية من تسمعه يتبجّح بمدينته الخاصّة، ويذمّ المدينة التي آوت الجميع.

في البداية كرهت كلّ شيء: المدينة وناسها، وردّدت مع الجميع «بغبغة» الزيف والتزيّف، لكنّها الآن صارت تدرك المشكلة وأين مربط الفرس. صارت تشعر أنّ من يتشدّقون بهذه النغمة المضجرة هم الزائفون. فكّرت صديقة وتابعت التفكير بصمت كي لا تستفزّ أو تجرح شعور «سعد»!

ـ ربّما المدينة ملتبسة، وربّما هي.. لا أعرف. لكنّها بالتأكيد أعجوبة أعيش فيها وأشهد كيف تصنع ذاتها من لا شيء.
قالت ثم استرسلت تفكّر في صمت:

ـ وأنا قررت أن أحذو حذوها. أن أصنع نفسي من العدم.
فكّرت صديقة وهي تسترجع بداياتها الأولى قبل أن يرشدها أحدهم لمهنة المؤانسة التي كانت مطلب رجال الأعمال ممّن ضاقوا ذرعًا بتفاهة الأجساد، العارية من أيّ دفء، فسعوا للبحث عن جسد يفكّر وتتقن صاحبته فنّ الحديث. قالوا لها مؤانسة، وصدّقت لأنّها أرادت أن تصدّق. ربّما كي تتخلّص من الإحساس باللزوجة كلّما وقع عليها جسد كالبهيمة.

حين ذهبت إلى أحد الفنادق لأوّل مرّة كي تعمل لحسابها بعد أن رماها جاسم في العراء، وخافت من العودة إلى نوال، لم تكن تعرف ما ينتظرها. رأت نساء من كلّ الأجناس والأعراق، شابّات صغيرات لم يتخطّين العشرين، وأخريات في العقد الرابع، يتخايلن أمام رجال من كلّ الجنسيّات وبالأخصّ الجنسيّات الأوروبيّة ومن أعمار تجاوز معظمهم عقده الرابع وكلّ يتفقّد البضاعة كما لو كانوا في سوق كبرى للمواشي. ذاك يتحسّس أليّة وآخر يخطف قبلة ويتذوّق، قبل أن يستقرّ الرأي على إحدى المومسات، وبعد ذلك تأتي عمليّة التفاوض على السعر. وقفت صديقة وسط الجموع تنتظر أن يطلبها أحد. تمنّت ألاّ يفعلوا.

مأخوذة بهاجس بيع جسدها لحسابها، تملّكها هاجس آخر:

ماذا لو أحبّت من يشتريه؟ وما بين هواجسها وإحساسها أنّها نعجة تُسام، لم تنتبه إلى أحد الواقفين الذي طلب لها كأسًا، بعد أن سألها how much. لم تنتبه إلاّ بعد أن لكزها في مؤخّرتها فأجابت بسرعة: خمسمائة درهم!

حدّدت المبلغ وهي لا تعرف الأسعار. شعرت أنّها الأجمل هناك. جسد لم يبدّل فيه الحمل والولادة شيئًا. وجه ارتاح من ضغط التفاصيل، وها هي كلّما اقتربت شفتاها من كأس الويسكي تتبعثر التفاصيل!

ويسكي، وعيون محدّقة قلقة تبحث جائعة عن طبق لذيذ، وهي، كانت لذيذة!!!

في تلك الأيّام، كانت فاطمة تفكّر في العادة السرِّيّة التي طرأت على حياتها دون أن تعرف المصطلح المتعارف عليه في وصف ما تفعله. كانت تستغرقها المتعة الجديدة التي اكتشفتها صدفة. لبستها المتعة فارتاح وجهها هي الأخرى من ضغط التفاصيل على كثرتها. تورّدت وجنتاها بالضوء وصارت تشعّ كلّما داعبت جسدها. حتى التفكير بهذه اللذّة واسترجاعها مرارًا وتكرارًا من غير أن تلمس نفسها ولو للحظة أبهج روحها وتغلغلت الحياة في أنحائها. فقط شيء ما كان يشغلها عن المغامرة التي اقتحمت حياتها على غير انتظار. كيف ستحتفظ بما تفعل لنفسها ويكون السرّ الذي تمتلكه من بين أسرارها الأكثر سرِّيّة!

ـ أبو عليّ! تذكّرته فاطمة وكادت تنهار من الهلع.

كانت فاطمة تعيش حياة معلنة بسيطة شأنها في ذلك شأن نساء المخيّم، وأخرى سرِّيّة غير معلنة تجري داخلها، وتبني فيها عوالم ساحرة تبتكرها لنفسها لتتغلّب على شقائها اليومي وترحل بعيدًا لبعض الوقت عن المخيّم.

في حياتها المعلنة تتحدّث وتتكلّم عمّا ستطهوه اليوم، أو تسأل جارتها عن سعر الملوخيّة التي اشترتها، لترى إن كان بائع الخضار تشاطر عليها وباعها بسعر أغلى. تفعل ذلك وتتحدّث وتمضي في مسايرة من حولها كي تلقى القبول أو كي تجاري ما هو دارج وليس لأنّها ترغب بهذا الحديث المملّ في معظمه. لكنّها في الحقيقة حين كانت تساوم على الأسعار كانت تفعل لتختبر شطارتها في مناكفة البائع والتغلّب عليه في فرض السعر الذي تريده. قليلاً ما كانت تنتصر عليه. بينما جارتها أمّ فيصل كانت تقريبًا هي من يحدّد سعر أيّ شيء تشتريه. كانت فاطمة تخجل من المساومة، وأكثر ما كانت تفعله حين تجد السعر مرتفعًا أن تنسحب بهدوء، لأنّها لا تملك المال الكافي. سرعان ما تعزّ عليها نفسها حين تفاوض مخافة أن يكتشف البائع أنّها تفاوض على السعر لأنّها لا تملك ما يكفي من المال، لا لأنّه غال فعلاً. لكنّها كانت تحاول أن تقلّد أمّ فيصل، لذا كانت تسألها فتأخذ تلك برواية أدقّ التفاصيل عن مهارتها في المساومة على سعر البندورة أو الملوخيّة أو.. أو. وكانت فاطمة تستمتع برواياتها وتشتهي أن تفعل مثلها ولكنّها لم تقدر. أمّ فيصل كانت تعتبر الموضوع أبسط من ذلك. هي يجب أن تدبّر مصروف البيت تدبيرًا يقيها شرّ الإفلاس قبل نهاية الشهر،

وكانت تستميت في التفاوض لتفعل ذلك على خلفيّة أنّ البائع سيضطرّ للبيع لأنّه يخشى من أن تبيت البضاعة إلى اليوم التالي. أمّ فيصل لم تكن الوحيدة التي تفعل ذلك في المخيّم، كان تقليدًا متّبعًا بين نساء المخيّم لم تتمكّن فاطمة من اتّباعه إلاّ بصعوبة رغم أنّها أكثرهنّ حاجة. زوج متوفّى وأبناء استشهدوا في ساحات القتال، وكنّة هربت تاركة لها ثلاثة أحفاد من غير مُعيل سواها. كانت ستفعل ذلك وتهرب هي الأخرى لو توفّي أولادها ولم يترك لها أحد أيّ أحفاد.

حتى وهي في هذه السنّ كانت تتمنّى لو تبتعد عن المخيّم وعن كلّ ما يذكّرها بالشقاء، أو بضعف من هم حولها. ترفض أن تكون مثلهم، وتتحوّل إلى شفاه تتشدّق بالروتين والتفاهة والملل. ولكن أين تذهب؟ كانت مستعدّة لأن تعمل خادمة في بيت إحدى العائلات الثريّة في لبنان وتبتعد. كان هذا أقصى ما استطاعت أن تتخيّله كمخرج. فهي لا تتقن أيّة مهنة ولا تعرف القراءة والكتابة. منذ عشر سنوات لم تكن لديها أيّة مشكلّة ماليّة، كانت تتقاضى مخصّص ابنها الشهيد حسن شهريًّا من الشؤون الاجتماعيّة لمنظّمة التحرير، الذي استشهد قبل الاجتياح الإسرائيلي بعدّة سنوات، في إحدى المرّات التي قصفت فيها فتح بلدة الدامور وذبحت إحدى جماعاتها التابعة للنظام السوري أبناء البلدة. كان حسن ما يزال شبلاً في العاشرة من عمره حين استشهد. استمرّت الشؤون تدفع لها حتى بعد انسحاب المنظّمة من لبنان. صحيح كانوا يدفعون مخصّص الشهيد بشكل متقطّع تارة ومنتظم تارة أخرى، لأنّ توزيع

المخصّصات كان يتمّ بشكل سرّي بعد خروج المنظّمة من لبنان، وكان ذلك يربك المسؤولين عن توزيع المخصّصات. لكنّهم كانوا تارة يعوّضون عليها في الأشهر اللاحقة وتارة لا يعوّضون. كانت تسمع كثيرًا أنّ فلانًا أُقصي من منصبه لأنّه سرق مخصّصات الشهداء «ولم يعد ثقة»! هي كانت لا تعرف إن كان ذلك صحيحًا أم لا؟ كانت لا تستطيع أن تصدّق أنّ أحدًا يمكن أن يطاوعه قلبه على سرقة مخصّصات الشهداء. وكانت تردّد في نفسها:

ـ لا يمكن! لا بدّ أنّ هذه مجرّد شائعات! لا يمكن! إنّ بعض الظنّ إثم!

وجع الذاكرة

خمس سنوات كانت قد مضت على هروب صديقة، حين هاجر ابنها جسام إلى الدنمارك ليعمل في صيانة المراحيض. وحين عرفت بهجرته أصابها الغثيان، وصارت كلّما اختلت إلى نفسها يعاودها الغثيان، وتشعر بأنّها تهوي إلى داخلها، فتستلقي على سريرها تحاول وقف السقوط، فلا تفلح إلاّ حين يتقوقع جسدها على نفسه فتضع وسادة على معدتها وتضغط وتضغط إلى أن تهدأ موجات الغثيان. وحين حصلت صديقة على عنوانه قرّرت مراسلته وإرسال عنوانها كي يستقرّ معها. لكنّه رفض لأنّه كان يستمتع بتصاميم المراحيض التي يعمل في صيانتها، وصار يصف لها، في رسائله، جماليّات هذه المراحيض وفنون هندستها وديكورها الداخلي. مع الوقت أثّرت رسائله في مخيّلة أمّه صديقة، وبدأت ترتّب مرحاضها على وقع رسائله، فاكتشفت مع الوقت الهدف الجمالي للخصوصيّة التي يستثيرها التريّض حين يمكن للمكان أن يمنح ساكنيه بعض الخصوصيّة. نشأت صديقة في مخيّم مكتظّ

بالناس والضجيج، لا تتجاوز مساحته الكيلومتر المربّع. وكان الكلّ يعرف كلّ شيء عن الكلّ، كما يعرف عن نفسه حتى الاختناق، وكان مخيّم برج الهوا الأكثر رقيًّا بين المخيّمات لقربه من العاصمة بيروت ولكثرة ما يحويه من متعلّمين وأحلام أينعت على ضفّتي حلم العودة السعيد. كان الاختناق الذي يسبّبه انعدام الخصوصيّة أشبه بالتوقّف الطوعي عن التنفّس، بانتظار الوعد الذي قطعه الناس على أنفسهم أو الحلم الذي استمتعوا بالاستغراق فيه على غير رغبة في الاستيقاظ. صديقة كانت وسط هذا الضجيج تفكّر كالفلاسفة وتشعر بأنّها تفهم أكثر من الجميع وتدرك ما ستؤول إليه الأمور وتشفق!!

حين وصف لها حسام الأشياء البديعة التي يحتفظ بها الدنماركيّون في مراحيضهم من ستائر ملوّنة وأرضيّات مزركشة ولوحات ورفوف للكتب، تذكّرت كيف كانت تدمن القراءة في المرحاض، وأكثر ما كانت تستمتع به هو بعده عن أن يكون احتمالاً لممارسة أيّة متعة. هذا أقصى ما فكّرت به: الخصوصيّة التي تحتاجها للقراءة والتي لم تجدها إلاّ داخل المرحاض. بعد هجرة حسام ورسائله المفعمة بروائح الصابون وأضواء الشموع والأزهار البرّيّة المجفّفة، بدأت ترتّب مرحاضها بروح المصمّم على اكتشاف قارّة جديدة.

حين هربت صديقة، كانت فاطمة ما تزال تتريّض في المرحاض العمومي للنساء. ضاق ذرع صديقة بالتريّض وبكلّ

شيء، ولم تعد تقدر على تحمّل غياب أحمد. نظرات الشفقة والإغواء.. النبرة الرتيبة لأهل الحارة.. الأصوات العالية.. الصمت الكئيب.. الشجارات اليوميّة.. قرقعة السلاح.. الانتظار إلى ما لا نهاية، غدًا آخر لا يحمل من جديد سوى الانتظار.. انتهاء نهاية الانتظار الذي لا يفصح عن شيء. فقط الروائح.. روائح الطبيخ في البيوت كانت تذكّرها بطفولة هانئة وهي تسير في الأزقّة.. فتتوه ولا تعرف أين هي. أحيانًا إن عرفت في أيّ طرف من المخيّم هي، تحدّد الاتّجاه وتذهب من غير معرفة سابقة بالخريطة التي تسير وفقها. بوصلة الألفة كانت رفيقتها الدائمة حين كانت تعيش وسط حكايات سعيدة عن جنّتها المفقودة. حين كان الحلم ما زال طريًّا وطازجًا.

في تلك الأيّام، كانت رائحة الطبيخ المنبعثة من بيوت المخيّم هي دليلها الوحيد في هذه المتاهة الكبرى. ما إن تشمّ الروائح حتى تعرف أين هي من المخيّم. في حيّ الكويكات أم في جورة التراشحة. ولأنّ أهالي الكويكات درجوا على طهو «تقلية» البندورة بالفلفل الأحمر، كانت تعرف بمجرّد أن تشمّ رائحتها أنّها في حيّهم. لكن في جورة التراشحة يختلف الدليل. إذ مجرّد أن تسمع أصوات الأجران وهي تدقّ وتدقّ لتهرس اللحمة قبل صنع طبق الكبّة النيئة الذي اشتهروا به، تعرف أين هي.

هربت من الروائح ومن أصوات الأجران، ومن أغاني عبد الحليم التي ظلّت تصدح في أرجاء المخيّم وتذكّرها بأحمد، وغيابه

المترع بالغياب. هربت حين كفّت الأحلام والحكايات عن التفتّح على أيّ شيء. لا حلم العودة، لا الحبّ، لا أواصر القربى أو الصداقات.. وهوت في لجّة اليأس، حتى أجمل الذكريات لم تتمكّن من انتشالها وإعادة تركيبها من جديد.

أحبّت أحمد. توقّفت عن الدراسة وتزوّجته. أنجبت ثلاثة صبيان. استشهد قبل أن تنجب المزيد. كانت تتمنّى لو أنجبت بنتًا تكون سلواها في تلك الحياة الرتيبة. لم يكن من مزيد.

ـ مات أحمد أو استشهد لا فرق: هذا الغياب يؤلمني. أشعر أنّي أحترق. النيران.. النيران تنهش روحي.

كانت صديقة تبكيه حتى قبل وفاته. كانت تتخيّله دائمًا عائدًا في سيّارة إسعاف، أو محمولاً على الأكتاف. تتخيّل المنظر وتبكي كما لو مات حقًّا.

ويوم جاءها النبأ لم تبك أبدًا. ظلّت ساهمة تحدّق في الفراغ.

تحدّق بالغياب الذي صار يلتهمها زفرةً زفرة. غياب بدأ قبل رحيله، عاشته صديقة تنتظر أن يأتيها أحمد من الغياب. كان يأتي ليومين فقط، ما يلبث أن يغيب في أماكن لم تسمع عنها إلاّ حين تدور رحى المعارك. تارة في الجنوب، وأخرى في البقاع والشمال فالجنوب. غياب لا ينفكّ يدور ويدور حولها فتُصاب بدوار التفاصيل. تفاصيل لم تستطع التقاطها. تفاصيل تهرب من بين أصابعها وتجري بين قدميها الراحلتين في المتاهة. دوار التفاصيل أخذها إلى عتمة الروح حيث بإمكانها أن تبني قوقعتها وتختبئ.

لكنّ اختباءها لم يكن ليدوم طويلاً أو إلى الأبد.

يأتي أحمد ليومين فتهرب التفاصيل دفعة واحدة ولا يبقى منها سوى الفراش. تتقلّب عليه مع أحمد حين تترك لهما فاطمة البيت. تتذرّع بالذهاب إلى السوق، كي تفسح المجال لابنها كي ينفرد بزوجته. كانت فاطمة تشفق على صديقة من هذا الغياب فتغيب في السوق ولا تعود إلاّ بعد الظهيرة. في المساء لم يكن هناك متّسع لتبديد الغياب أو زحزحته قليلاً: فالغرفة صغيرة، والأطفال يتمدّدون بين جدّتهم فاطمة وأمّهم صديقة، وكان أحمد يحضر بينهم كالغريب. يقتحم المساحة الضيّقة بجسده المثقل بتراب المعارك ووطأة الغياب. يوزّع وقته بين أولاده الثلاثة وأمّ وزوجة أعياهما الانتظار. يصل مع تباشير الصباح الأولى وعلى الفور يخلع ثيابه العسكريّة. تأخذها فاطمة وتنقعها في طشت الغسيل في المطبخ الضيّق. يدخل هو إلى المرحاض ويغتسل. كانت فاطمة في ذلك الوقت ما تزال في مخيّم برج الهوا، وكان البيت مجرّد غرفة ومطبخ صغير ومرحاض بناه زوجها حين ادّخرت المال من عمل خليل الإضافي في المطبعة.

بناه ولم يستطع شراء باب من خشب أو حتى صفيح. لم يكف المال فاستعاض عن الباب بستارة، هي عبارة عن حرام كانت فاطمة حصلت عليه من الإعاشة. هذا حين كانت وكالة الغوث توزّع الثياب على أهالي المخيّم في بقج تحوي ما يمكن أو لا يمكن استعماله.

لم تكن فاطمة تعرف كيف تستفيد من المايوهات وثياب السهرة. كانت تعرف أنّ الثياب التي توزّع هي ثياب مستعملة، ولم يكن يضيرها في ذلك شيء. حتى قفّازات الملاكمة التي وجدوها ذات مرّة في إحدى البقج كانت أكبر من يدي أحمد. احتفظت بها فاطمة إلى أن يكبر، وحين كبر حمل السلاح، وفقد متعة تجريبها. وحين كان زوجها يتأفّف من البقج والثياب المستعملة كانت فاطمة تخفّف عنه بواقعيّتها لتخفي ما تفعله فيها هذه البقج المقفلة على المدهش والغريب، وسرعان ما تردّد أمامه:

«مش مهمّ مستعملة. بسّ لو أعطونا كنزات وقمصان وسراويل وحرامات. لشو المايوهات. نحنا ما منروح على البحر أصلاً. حتى لو رحنا راح نسبح بتيابنا. يمكن مفكّرين إنّو عندنا متلهم. منسبح ومنسهر. هاي أكيد تبرّعات. اللي تبرّعوا قصدهم منيح، بسّ أكيد عايشين حياتهم مثل الأفلام. بسّ نحنا مش عم نمثّل بفيلم. نحنا بردانين عن جدّ. الكنزات منيحة والبيجامات كمان. بسّ المايوهات وثياب السهرة لشو؟».

كانت تردّد كلماتها هذه بصوت عال لتخفي ما تلهمها به الثياب والأشياء. كانت يومها تتخيّل الحياة التي يمكن أن تحياها لو لم تكن في مخيّم. كانت متعتها تعظم حين تلتقط قطع الثياب وتفكّر في أوجه استخدامها، وتقارنها بما كانت تشاهده في التلفزيون الوحيد في المخيّم الذي اشتراه أبو محمّد ووضعه على طاولة صغيرة أمام بيته المطلّ على ساحة واسعة. هناك كان يتجمّع

أهل الحارة ويشاهدون الأفلام. ويدفعون فرنكًا مقابل المشاهدة. كانت فاطمة تذهب وتشاهد وتنسج على تخوم حياتها حياة أخرى متخيّلة، تشبه حياة البقج والأفلام لتستريح من العناء ومن وطأة التفاصيل. وكانت تعجبها الإعلانات كثيرًا. سيّما ذلك الإعلان عن صابون لوكس، وتلك المرأة الجميلة التي ما إن تغسل وجهها به حتى تزداد جمالاً. كانت فاطمة تغسل وجهها بالصابون الذي تأخذه من الإعاشة. ورغم ذلك تظلّ جميلة.

لأنّه صابون بلدي.

فكّرت.

«الطبيعة أحسن.. بيقولوا إنّو لوكس فيه دهن خنزير. ونحنا محرّم علينا الخنزير. بسّ المرا اللّي بالدعاية حلوة والخنزير ما أثّر على جمالها. كمان sun silk شامبو منيح. بيقولوا كمان إنّو فيه دهن خنزير عشان هيك بيرغي الشعر».

كانت فاطمة تحلم أن تتمكّن ذات يوم من شراء لوكس وsun silk وأن ترتدي فستان السهرة الأسود ذا الكتف العارية الذي حصلت عليه ذات مرّة من البقج. فاطمة تحبّ أن تجرّب كلّ شيء. إن لم تستطع التجريب فإنّها تتخيّل. تخيّلت نفسها ترتدي الفستان وتعقص شعرها كما تفعل المرأة الجميلة في الإعلان، وتسير في حديقة بيتها في صفد بينما الأنظار تتّجه نحوها. كان شعر المرأة مرفوعًا في كعكة تجمّعت فوق رأسها والفستان يكشف كتفيها العاريتين، ووجهها يبدو رقيقًا ومرهفًا. كانت فاطمة تتفرّج أو

تتخيّل وتغرق في الرهافة في داخلها وتجترّ أحداث الأفلام في مخيّلتها. فتارة تتخيّل نفسها تنزل درج والدها الثري لتستقبل صلاح ذو الفقار المغرم بها. وتارة يغنّي لها عبد الحليم «بحبّك يا حياة قلبي..» كانت في حيرة من أمرها: هل تحبّ صلاح ذو الفقار أم عبد الحليم حافظ؟! كانت تحبّ الدفء المطلّ من عيني صلاح ذو الفقار وتعشق رقّة عبد الحليم ورهافته، واختارت أن تُبقي على الاثنين معًا طالما لا أحد يعرف سرّها، أو طالما لا يستطيع أحد أن يحاسبها أو يحاكمها أو يتّهمها بالخيانة. كانت تخون صلاح مع عبد الحليم غالبًا. ومع الأيّام تحوّل صلاح إلى ذكرى في مخيّلتها واحتفظت بعبد الحليم حبيبًا لا منافس له على قلبها، إلى أن مات عبد الحليم وبكته وانهمرت الغزارة من عينيها. ضحك عليها زوجها خليل ذلك اليوم، وظنّ أنّها بلهاء مثل كلّ النساء اللواتي عشقن عبد الحليم.

ضحك كثيرًا عندما سمع أنّ هناك امرأة رمت نفسها من الطابق الرابع يوم وفاته، وقال لفاطمة: «مسكينة يا فاطمة. أنت مش راح تقدري تعملي مثلها؟ يلاّ يلاّ تقدري ترمي حالك من ميدنة الجامع ومش راح تموتي. بسّ راح تكسري عظامك».

لم يعرف خليل أنّ فاطمة لم تعش الحبّ إلاّ في المتخيّل، وظنّ أنّها مجرّد موضة، كلّ النساء يعشقن عبد الحليم. هو نفسه يحبّه ويحفظ بعض أغانيه، رغم ذلك حين بكت فاطمة على عبد الحليم شيء ما قرصه من الداخل.

«معقول أغار من عبد الحليم، شو جاب لجاب؟ أنا وين وهوّي وين؟ على كلّ حال هوّي مات وخلصنا».

لكنّ خليل ما خلص. كان يحترق كلّما سمع حبّك نار. كانت الأغنية المفضّلة عند فاطمة. وفاطمة ازدادت جنونًا بحبّ عبد الحليم بعد وفاته. ولكن حين مات عبد الحليم في الواقع، مات مع الوقت في متخيّل فاطمة، ولم تعد تتمكّن من استحضاره فداهمها الفراغ.

كانت الحرب في لبنان قد بدأت. ومعها بدأت أزهار الغياب تتفتّح في روحها وتدفع بها أكثر فأكثر إلى المساحة المتخيّلة. أخذ المتخيّل يتّسع ويحتلّ حياتها، وأخذت الغرفة الضيّقة تتّسع مع كلّ غياب. بدايةً خطفت قذيفة حياة محمّد، ثاني أبنائها، ولمّا يزل في الثالثة عشرة. وبعد سنة واحدة هرب حسن وعلي والتحقا بالقواعد العسكريّة في الجنوب ودخلا في مجموعة الأشبال التابعة لكتيبة الجليل. أمّا أحمد فالتحق بالكتيبة الطلاّبيّة قبل غياب محمّد بشهرين، وحين سمع بوفاة أخيه قرّر أن يعتبره حدثًا عاديًّا في دورة الموت العبثي التي اجتاحت لبنان كلّه. لكنّ عليّ أبو طوق أحد قيادات الكتيبة أصرّ وقال: هذه تقاليد الجماهير ويجب أن تحترمها. يجب أن تذهب وتودّع جثمان أخيك.

احترم أحمد التقاليد، وحين رأى أباه منكسرًا تقطّع قلبه، لكنّه اصطنع رباطة جأشه واستحضر وجه عليّ أبو طوق ولبسه.

يجب أن أمثّل! على أحدنا أن يقوى ويمسك بزمام الأمور.

مثّل أحمد الدور جيّدًا. لكنّه حين كان يترك المعزّين أمام ساحة البيت ويدخل إلى المرحاض كانت فاطمة تفهم. كانت تتمنّى أن تدخل المرحاض وتمسح دموعه بكفّيها، وترجوه أن يبقى ولا يذهب إلى صنّين. لكنّها تعرفه، لن يصغي إليها، لم يصغ قبلاً، فكيف يصغي الآن وهو يرى أخاه مسجّى أمام عينيه أوصالاً قطّعتها قذيفة! كيف يصغي الآن وهو يرى كيف أخذت الحميّة والنخوة أخويه الصغيرين إلى الجنوب، أو إلى الشمال كما كان يطلق على الجنوب اللبناني بوصفه شمال فلسطين!

لم تجرؤ على إزاحة الستارة عن دموع أحمد. وقفت خلفها تنصت إلى شهقاته وتبكي. منذ تلك اللحظة سيختفي عبد الحليم من حياتها المتخيّلة لتحتلّها وجوه الغائبين. وسيُتوفّى خليل بعد ستّة أشهر من غياب محمّد. سيُتوفّى تحت ضغط الغياب والقهر والإحساس بالعجز وستّتسع الغرفة أكثر. وسيكبر عمر ليكون الوحيد الذي يذهب إلى المدرسة، سيحمل وصيّة الوالد على كتفيه ويمضي في رحلة العلم والتأمّل. أحمد سيعود ليحكي لعليّ أبو طوق والشباب عن أخويه الصغيرين اللذين قرّرا في غمرة التقاتل المجنون أن يرحلا إلى شمال الشمال، وحين سيسألهما الحاجز السوري من أين أنتما سيقولان من الجنوب. من أين من الجنوب؟ سيجيبان من جنوب الجنوب. ولأنّهما صغيران سيتركهما الحاجز السوري عند محطّة الزهراني وشأنهما. هما صغيران ولا يحملان أيّة بطاقة هويّة. وحين ينتهي العزاء سيعود أحمد إلى صنّين، وسيستشهد أبو خالد جورج بعد يومين بقذيفة انشطاريّة قبل أن ينفّذ

قرار الانسحاب من صنّين باتّجاه الجنوب أو شمال الشمال. كانت الأحداث تتسارع حين قرّرت قيادة الكتيبة الطلاّبيّة أن تعيد البندقيّة الفلسطينيّة إلى اتّجاهها الصحيح، وتترك الجماعات الحزبيّة تتقاتل في بيروت ما شاء لها أن تفعل، لتخوض الكتيبة حربها الشعبيّة من الجنوب كما كانت تتخيّل وتحلم، ورفعت شعارها الشهير: «كلّ البنادق نحو العدوّ الصهيوني»!

منذ ذلك الحين، لم تعد فاطمة ترى أحمد إلاّ نادرًا. قد يأتي ليومين كلّ شهر أو شهرين أو بحسب الظروف. كان يأتي ويخبر والدته كيف توغّل قرب حدود فلسطين، وكيف رأى صفد من قلعة الشقيف المطلّة على المستعمرات الإسرائيليّة. هو يروي، وهي تسمع وتُصاب بالدهشة. لم تكن تستطيع أن تتخيّل يومًا أنّ ابنها البكر سيخوض الحرب. كانت تتخيّله مهندسًا أو طبيبًا يتزوّج أحلى البنات. هو تزوّج أحلى البنات لكنّه صار فدائيًّا.

لم يكن أحد يتصوّر أنّ تلك الطفلة السمراء النحيلة ستصبح ذات يوم فتاة جميلة تخلب ألباب شباب المخيّم بعينيها السوداوين وسمرتها الآسرة، وبشفتيها اللتين ما إن تنفرجان عن ابتسامتهما حتى يتحوّل الحيّز المحيط بهما إلى منطقة جذب تشعّ بالعذوبة والسحر. كانت صديقة محبوبة. رغم هذا هي من أحبّت أحمد أوّلاً. أحبّها الكثيرون وهي أحبّت أحمد فقط. لا تعرف لِمَ هو بالذات. ولم تسأل. استسلمت لأحاسيسها وتذرّعت ذات صباح حين قَدِم من الجنوب وجاءت إلى بيته تحمل رواية «لا أنام»

لإحسان عبد القدّوس. كان من عادتها أن تُعير الكتب وتستعيرها من بنات وأبناء الجيران. وكان عمر، أخو أحمد، يحبّ القراءة مثلها وكان يعيرها كتبًا غريبة عجيبة ويقرأ لها بعضًا من أبيات شعريّة يكتبها بنفسه. صارت تستغرب اهتمامه المفاجئ بتحرير المرأة والعالم، وهو ما زال في الثالثة عشرة. كانت تستغرب أكثر وجود كتب في بيت فاطمة تتصدّرها عناوين لا تفهمها. «ما العمل» للينين و«المادِّيّة التاريخيّة والمادِّيّة الديالكتيكيّة». تصفّحتهما ذات مرّة ولم تفهم. يوم رأت كتاب «رأس المال» لماركس ظنّت أنّه رجل أعمال. ضحك عمر منها وقال: «بالعكس هوّي ضدّ رجال الأعمال والأغنياء كلّهم وبيعتبرهم حراميّة. وبينادي بتحرير المرأة والحرِّيّة الجنسيّة».

شو يعني؟ سألته صديقة وهو أصغر منها بثلاث سنوات. فقال:

«يعني إنّو يبطّل في زواج وإنّو يسمحوا للبنات والشباب يناموا مع بعض بدون ما يكون في عقد زواج ومكبوتات وبدون ما تنتهي العلاقة بالزواج. يعني يعملوا علاقات جنسيّة مفتوحة».

سألته صديقة: «من وين بتجيب هالكتب»؟

فقال: من أحمد.

صفنت صديقة وخافت، ولكن، لأنّها أحبّت أحمد، ارتضت بالمغامرة وإطلاق العنان لنفسها وبدأت تتحدّث عن تحرير المرأة. شيء واحد استوقفها لهنيهة: الزواج. ولكنّها لم تعد تفكر. «بدّي

روح للآخر بالحبّ.. لازم أكون مثل ما بدّو». وحين اعترفت لأحمد بحبّها فرح وظنّ أنّه يحلم. تغيّب عن الكتيبة لشهر كامل. غرق في العذوبة حين باغتته تلك الصغيرة.

فاطمة لم تكن تتدخّل في حياة أحمد. لكنّها شعرت على الفور وكأنّها داخل فيلم عربي، وأنّ صديقة تحبّ أحمد وأحمد يحبّها. فرحت هي الأخرى! كانت تحبّ صديقة وكانت أيضًا تحبّ مشاهد المحبّين وتُفتن بها. تركت لهما البيت بمجرّد أن رأت صديقة تقف بالباب وبيدها الكتاب. المرأة تكتشف الأشياء بإحساسها، وفاطمة عرفت أنّ أحمد يحبّ صديقة دون أن يدري.

«يا ربّ بلكي هيك بيضلّ بالبيت وما بيروح. حدّثت نفسها»!

ثم خرجت فاطمة وهي توجّه الكلام لصديقة: «فوتي حبيبتي البيت بيتك، وأحمد أخوكي، أنا رايحة على السوق».

دخلت صديقة والكتاب يرتعش بين أصابعها ونظرت في عيني أحمد الحائرتين.. وفي أقلّ من ثانية مادت الأرض بهما. تلعثمت وتلعثم. كانا وحيدين. التقط الكتاب من يدها وقال: «مش عم بتنامي؟» أحبّت تلاعبه وأجابت وخبث يطلّ من صوتها وعينيها: لأ. لا أنام.

وكرّرت عنوان الرواية. أعجبها مدخل الحديث.

ـ ليش؟ سأل.

ـ عم فكّر.

ـ بشو عم بتفكّري؟

ـ بصراحة؟

ـ بصراحة. .

ـ فيك.

ابتسم. تقدّم خطوة ووضع كفّه على وجهها. خافت. . . رفع ذقنها بيده وحدّق في عينيها فأطرقت خجلاً ولكنّها حاولت إخفاء خوفها خشية أن يتراجع.

(لازم يحسّ إنّي مستعدّة لكلّ شيء. لازم يتأكّد إنّي بنت متحرّرة وإنّو ما في حواجز).

أحمد كان يحبّها دون أن يدرك وعيه ذلك. فقط إحساسه. تسكن إحساسه مذ بدأ وجهها يتفتّح على جاذبيّة ذات نكهة خاصّة. تطلّ منه عينان تطلقان وعدًا بالحبّ ينتظر من يقطفه. وصار كلّما رآها يشعر بالسعادة تغمر روحه. لم يفكّر. لم يكن لديه الوقت ليتوقّف ويفكّر. .

ها هي تأتي الآن من اللانوم وتوقظه.

في ذلك اليوم أمسك أحمد أناملها. كانت رفيعة وطويلة. لم يعرف ما يفعل حيال رقّتها. صار قلبه يدقّ بعنف. أمسك بها وأخذ يتأمّل الأنامل الدقيقة ولم يجد نفسه إلاّ وهو يقبّل أصابعها واحدًا تلو الآخر. شعرت بهلع شديد، وسألت نفسها: ماذا بعد؟ قبّل باطن كفّيها، لم تعترض. نظر في عينيها فأطرقت ثم عادت للنظر

في عينيه. لم تعرف لِمَ تفعل ذلك. كانت تحبّ أن تقلّد مشاهد الحبّ في الأفلام ولكنّ ما تفعله حقيقي. ترغب في أن تحدّق في عينيه، ولكنّها ما إن تفعل حتى تهرب بعينيها إلى أسفل، إلى اليمين وإلى اليسار، إلى أيّ اتّجاه سوى عينيه.

الأفلام حقيقة إذًا!

تحدّث نفسها لتهرب من الهلع الذي بدأ ينهك جسدها ويجعله عاجزًا عن المقاومة، راغبًا في الاستسلام والارتماء بين أحضان أحمد. ولكنّه بدل أن يعانقها قرّب وجهه من وجهها وقبّلها القبلة الأولى. لم تستطع التنفّس. صارت تلهث وتلهث، لتلتقط أنفاسها. لكنّه أكمل بطريقة غريبة لم ترها في الأفلام من قبل. أدخل لسانه في فمها فأطبقت صديقة فكّيها عليه. لم تعرف كيف تتجاوب معه... وبدل أن تستمتع بالقبلة خافت. أحمد فرح بخوفها وأكمل فتح فمها بلسانه. هذه المرّة كان أرقّ! تابع ثم: «ما تخافي اعملي متل ما بعمل..».

أطاعته لأنّها تحبّه وتخشى أن تبدو غبيّة أمامه. أحبّ غباءها ولم يتذمّر. أفرجت عن لسانه وانطلقت معه تتعلّم فنون الحبّ. بدأت صديقة، مذ بلغت، تقرأ عن انتصاب القضيب في مجلّة «طبيبك» وعن تأثير طول القضيب أو قصره على المتعة. مفردات لم تكن تفهمها ولكنّها كانت تتكهّن ما هي وماذا تعني من غير أن تفهم ما تعنيه، وتعرف أنّها مرتبطة بما يحدث لها من متغيّرات كالدورة الشهريّة ونموّ ثدييها بشكل محرج وتدوّر وركيها... كانت تقرأ

«طبيبك» خفية. تضعها تحت ثيابها وتدخل المرحاض لتقرأ. تقرأ عن القضيب وغشاء البكارة والعادة السرِّيّة وهواجس المراهقين والمراهقات. عن فتيات فرّطن بعذريّتهنّ مع أوّل عابر سبيل وسلّمن أنفسهنّ متاعًا لغدر المحبّين. تقرأ مفردات لم تكن بالنسبة إليها إلاّ مفردات لفظيّة لا تعرف ما تعنيه بالملموس. لم تحاول أن تعرف لأنّها أحسّت أنّها في حيّز الممنوع، لكنّها كانت تسمعها على شفاه زميلاتها في المدرسة يتداولنها همسًا. وها هي الآن تقف بالمواجهة معها.

حين أمسك أحمد بيدها وقرّبها من عضوه، كان عضوه قاسيًا فقالت لنفسها: هذا هو القضيب إذًا. فأين يقع غشاء بكارتي؟ خافت كثيرًا وبدأ جسمها يرتعش. ظنّ أحمد أنّها ترتعش من الرغبة فأثير إلى الحدّ الذي لم يعد قادرًا على الابتعاد. أمعن التصاقًا بها، فأحسّ قلبها يدقّ بعنف، وصارت الرغبة في سحقها وامتلاكها أقوى من صوت عليّ أبو طوق وكلامه عن احترام تقاليد الجماهير. مدّ يده تحت تنّورتها القصيرة وتلمّس الطريق إلى الفخذين. فوجئت صديقة حين أخرج عضوه ووضعه بينهما وسرعان ما فار غزيرًا ساخنًا سائل أبيض لزج. خافت وأخذت تنظر إليه بفزع وقرف. بذلت جهدًا كبيرًا في إخفائهما عن عيني أحمد. أسرع إلى منشفة بيضاء قرب النافذة ناولها المنشفة فمسحت السائل عن فخذيها ولم تتفوّه بكلمة. غضبت من نفسها على هذه البداية غير المتوقّعة. لملمت بعضها بخجل ومشت صامتة باتّجاه الباب. أمسك يدها وقال: أحبّك؟

أحبّت الكلمة وإن لم تشعر بها. كانت المباغتة أكبر من قدرتها على الشعور بأيّ شيء آخر. اقترب من شفتيها وقبّلها قبلة خفيفة، ثم ما لبث أن طبع قبلة أخرى على جبينها فهدأت.

عادت صديقة إلى البيت فوجدت إخوتها يتحلّقون حول «السدر»[1] ويأكلون المحشي. نادوها فقالت لحظة! أنا قادمة! ودخلت إلى المرحاض على الفور. أقفلت باب الصفيح واختبأت. لم تعرف لماذا تختبئ مع أنّ أحدًا لا يعرف ماذا كانت تفعل للتوّ، فقط هي وهواجسها وأسئلتها عن الغد. غدها مع أحمد. كانت مشاعرها مزيجًا من الخوف والسعادة.

لو اكتفى بعناقي؟ حدّثت نفسها.

ماذا ستفعل أمّي بي لو عرفت ما حصل؟

كان من عادة صديقة أن تهرع إلى المرحاض فور انتهائها من تناول الطعام لا قبله. اليوم تتصرّف على غير عادتها. فكّرت أمّها نزهة ومرّت الخاطرة سريعة. نادت عليها فردّت صديقة: قادمة.. قادمة. غسلت يديها وجفّفتهما بالمنشفة المعلّقة على مسمار في جدار المطبخ. جلست إلى الطعام وتناولت قطعة من محشي الكوسا في فمها.

غريب... قالت لنفسها. لم تشعر بطعم الكوسا مع أنّها «أكلتها» المفضّلة بعد الملوخيّة. كلّ شيء صار تافهًا كلّما استعادت

---

(١) السدر: صينيّة معدنيّة كبيرة يوضع عليها الطعام.

طعم القبلة. لم تستطع سماع أيّة كلمة ممّا قاله أخوها أو أمّها. كانوا يتبادلون الأحاديث ويضحكون وهي لا تفهم شيئًا. كانت شاردة. أحسّ أخوها الأكبر سمير بالضياع يعتريها فسألها مطمئنًا: صديقة ما بك؟ نظرت إليه ساهمة وقالت: لا شيء. وصمتت. صمت هو الآخر وسرح يفكّر في سرحانها. في تلك اللحظة سألتها أمّها نزهة:

ـ أين كنت؟

ومن غير أن تفكّر أجابت:

ـ عند إيمان.

ـ لكنّ إيمان جاءت منذ عشر دقائق وسألت عنك..

ـ نعم. نعم لم أجدها فمررت بابتسام لأستعير منها كتابًا.

ـ أين هو الكتاب؟ لم أرك تحملين شيئًا. بل رأيتك تأخذين معك كتابًا.. أين هو؟

ـ أقصد ذهبت لأعيده لابتسام لأنّي استعرته منها منذ فترة وأنهيته.

لم تعجب نزهة ردود ابنتها وأحسّت بالريبة. وصمتت وقرّرت مراقبتها. على الطرف الآخر من الحديث كان سمير يصغي للحوار، وشعر أنّ أخته تُخفي شيئًا. لم يتدخّل ولكنّه كان متأكّدًا أنّ وراء الكذب ما وراءه. بالتأكيد هي مغرمة. لكن بمن؟

ـ يجب أن أراقبها وأعرف. لا أريد أن يضحك أحد على

أختي. كان سمير على علاقة جيّدة بأخته ومتسامحًا نوعًا ما مقارنة بأقرانه.

في اليوم التالي، وكان الطقس حارًّا بعض الشيء، ذهبت صديقة إلى بيت أحمد وهي لا تملك ذريعة هذه الزيارة.

سأتدبّر شيئًا حالما أصل.

كانت فاطمة تجلس في صحن الدار، فلمّا رأت صديقة أشرق وجهها.

ـ ادخلي يا ابنتي.

ـ لا، شكرًا. جئت أرى عمر. أريد أن أستعير كتابًا كان وعدني به.

فقالت فاطمة بطيبتها المعهودة:

ـ عمر مش هون. في أحمد. فوتي اسأليه. بلكي بيعرف وين.

دقّ قلب صديقة عند ذكر اسم أحمد الذي سرعان ما سمع صوتها وخرج ليقول:

ـ تفضّلي. اختاري ما شئت من الكتب. هي كتبي على أيّة حال ويمكن أن أعيرك ما تشائين.

دخلت صديقة مرتبكة وفاطمة تشجّعها بنظراتها الودودة وتبتسم.

حين أصبحت داخل الغرفة أغلق أحمد النافذة كي لا يشاهدها الجيران عندهم حفاظًا على سمعتها. توقّع أنّ أمّه ستفهم تصرّفه وأنّها لن تفسّره بشيء آخر. حركة أحمد زادت صديقة ارتباكًا وشعرت بالإحراج أمام فاطمة وقالت في سرّها:

ـ ماذا ستقول عنّي الآن؟ بلا مربى ولن تقبل أن يرتبط أحمد بي.

قطع أحمد عليها حبل أفكارها وناولها ورقة صغيرة كتب عليها رقمًا فقالت:

ـ ما هذا؟

فأجاب أحمد:

ـ هذا رقم هاتفي في الجنوب. يجب أن أغادر غدًا في الصباح. تتّصلين فيردّ عليك عامل الهاتف. قولي له أريد التحدّث مع أبو خالد وسيحوّلك إليّ. سأتغيّب لمدّة أسبوع فقط وسأعود إليك لنمضي وقتًا أطول سويّة. لا تنسي. اتّصلي بي.

ـ من أين؟ سألته. ليس لدينا هاتف في المخيّم. وأخشى أن يراني أحد أستخدم هاتف البقّال..

ثم توقّفت لتقول: لا عليك سأتدبّر الأمر.

تذكّرت أنّها يجب أن تبدو قويّة لتليق به ولتبدو أكثر تحرّرًا. اقتربت منه خلسة وقبّلته في فمه قبلة خاطفة وابتعدت خطوتين للوراء. اختلج وجه أحمد على الفور ولم يدر ما يفعله.

ـ أمّي في صحن الدار وربّما تأتي فجأة. فكّر.

كان يودّ أن يأخذها بين ذراعيه ويودّعها كما يشتهي. نظر حوله، تردّد. قرأت التردّد في عينيه وفهمت. هي الأخرى لم تجرؤ على المجازفة بأكثر من قبلة.

فاطمة كانت تشعر بالرياح تعصف بالغرفة الضيّقة. لكنّها كانت خائفة أن تترك البيت لهما، خشية أن يأتي أحد في غيابها فجأة. خافت عليهما من الفضيحة.

ـ أحمد لن يتحمّل، ابني وأعرفه، إنّه شهم كفاية لأن يعرّض صديقة لهذا النوع من الإحراج. حدّثت نفسها.

باب البيت من الصفيح لا قفل له. كانت المخاطرة أكبر ممّا يمكن تحمّلها.

مثل الإنسانة!

حين قدّم نفسه وقال: وليد اليافاوي، لم تتفوّه بأيّة كلمة. لم تعلّق. لم تفهم لماذا يقدّم نفسه. ليس من عادة الزبائن أن يعلنوا عن أسمائهم لصديقة. فقط يباشرون بقول: how much، تحدّد السعر، وبعد أخذ وردّ قد تتّفق معه على مبلغ محدّد، لكنّ هذا مختلف ويتكلّم بطريقة مهذّبة، قالت لنفسها.

لم يظنّ وليد في البداية أنّها مومس. اعتقد أنّها امرأة تعمل في دبي في إحدى الوظائف المحترمة. حتى طريقة لبسها لم توح له بشيء. فقد اعتادت صديقة أن ترتدي ثيابًا محتشمة حين تخرج للسوق كي تشعر أنّها تعيش حياة طبيعيّة. ثيابًا بسيطة.

كان مهمومًا من ثقل الوحدة التي تفترسه مذ أتى إلى مدينة لا يعرف فيها أحدًا ما عدا زملاء العمل. وككلّ يوم جمعة يذهب إلى الكارفور ليملأ عربته بحاجيّات المنزل لأسبوع كامل. لم ينتبه لاصطدام عربته بعربة أخرى إلاّ حين شدّتها يد صديقة بعد أن علقت عربتها بعربته. نظر باتّجاهها فإذ بعينيه تلتقيان بعيني صديقة. سرت في جسده قشعريرة غريبة.

ـ أهي ابتسامتها؟ أم كلمات الاعتذار تخرج من فمها على استحياء. فكّر.

انضمّ إليها في حركة لطيفة يحاول فكّ عربته عن عربتها. كانت قد مضت عشر دقائق حين أتى عامل الكارفور وساعدهما، وحين انفصلت العربتان كانت الألفة قد أخذت تتسلّل بينهما حتى إنّه لم يفكّر أو يتردّد بالتعرّف إليها في أطرف موقف حدث له منذ مجيئه إلى هذه المدينة.

كانت يومها ترتدي الجينز وبلوزة بيضاء قطنيّة بأكمام قصيرة. سألها عن اسمها فأعطته اسمها الحقيقي وقالت: صديقة. لم يفهم وظنّ أنّها تعرض عليه الصداقة. فوافق مردّدًا:

ـ صديقة. بالتأكيد. اسمحي لي... ثم ناولها بطاقته وعليها رقم هاتفه الجوّال. إن احتجت إلى أيّة مساعدة. تستطيعين الاتّصال بي متى شئت.. أخذتها ولم تعلّق ودسّتها في المحفظة بغير اهتمام. رأى الحياء والتردّد في تصرّفاتها. فيما هي لم تدر ما تفعل. وقع في الحيرة حين قالت: صديقة. ظنّها جرأة منها أن تعلن رغبتها في التعرّف إليه. لم يفهم. ولأنّه اعتاد ألاّ يفهم أشياء كثيرة ممّا تحدث معه صمت.. ولم يعلّق حتى داخل نفسه.

حين عادت إلى البيت محمّلة بالأغراض واصلت التفكير بما حدث وهي لا تكفّ عن الابتسام من الموقف برمّته. اشتباك العربات. تلعثمه حين نظر إلى وجهها أعاد إلى ذاكرتها وجه أحمد يوم التقته وباحت بحبّها له.

مضت أيّام قليلة، كانت خلالها لا تكفّ عن التفكير بوليد وماذا قصد بإعطائها رقم الهاتف.

هل ينتظر منّي أن أتّصل به؟ سألت نفسها مرارًا والتردّد يشلّها عن التقاط الهاتف والاتّصال. لم تدر لم كانت تستعيد المشهد ووجهه مرارًا وتكرارًا، وتشعر بالبسمة تتسلّل إلى شفتيها. أكثر ما أعجبها وجهه الملوّح بالحيرة والحياء.

في تلك الأيّام صارت وحشتها أوسع ممّا يحتمله جسدها الغارق في عتمة البغاء. وحيدة تحيا في عالم غريب. ليس لحياتها من وجود سوى ذلك الهامش الذي أمعنت فيه ببيع جسدها وتفتيت روحها إلى ذرّات متناثرة فلم تعد تشعر بكليهما: لا الجسد ولا الروح. الهامش والعزلة ولا شيء آخر.

ليال موحشة كانت أفكارها تدور وتدور وتطحنها. تمنّت لو أنّ هناك من يحدّثها أو يناقشها أو حتى يتشاجر معها.. لكن لا أحد.

بعد أسبوع تمامًا، لم تجد نفسها إلاّ وهي تتّصل بوليد.. ضربت الرقم عشر مرّات متتالية. لكنّها كانت تسارع إلى قطع الاتّصال قبل أن يبدأ هاتفه بالرنين.. أحسّت بالغرابة من التوق الذي يتملّكها ويدفعها للاتّصال به وهي بالكاد التقته. لكنّه رنّ الآن ولم تعد تستطيع التراجع! دقّ قلبها بعنف.

لم يعرف رقمها فسأل من يتكلّم؟ فأجابت بعدما توقّفت لهنيهة متردّدة: صديقة!

صديقة! آآآه صديقة.. بكلّ تأكيد. الصداقة أجمل شيء بعد الحبّ. بل ربّما أجمل منه. ردّد كلماته فيما المباغتة كادت تعقد لسانه بداية. لم يتصوّر أنّها ستتّصل حقًّا، وهو الذي تمنّى أن تفعل. فوجهها وابتسامتها العذبة لم يبرحا مخيّلته. حاول أن يخبرها ذلك فوجد نفسه يتمتم بكلمات تاهت حينًا وأصابت حينًا آخر، إلى أن وجد نفسه يغرق في الحديث عن العزلة التي يعيشها بسبب إيقاع الحياة المملّ: لا شيء سوى العمل والعمل والعمل.. وهي تثني على كلامه، تؤكّده حينًا وحينًا تصغي وتصغي إلى أن امتدّت بينهما مساحة من الصمت فلم يجد وليد نفسه إلاّ وهو يردّد:

ـ ما رأيك لو نلتقي بدل التحدّث على الهاتف؟ لكنّه لم يتوقّع جوابها..

ـ أوكي..

ـ متى..؟

ـ الآن.

ـ الآن..؟

ـ نعم الآن إذا أردت. من ناحيتي ليس لديّ شيء الآن إلاّ إذا كان لديك..

قاطعها مستعجلاً خشية أن يفسد الأمر وقال:

ـ لا، لا ليس لديّ شيء.. أين ترغبين في أن نلتقي؟

ـ في بيتي. إذا أردت؟!

مرّة أخرى فوجئ بجرأتها. أخذ العنوان وتحرّك باتّجاهها على الفوز. فيما هي فوجئت من تطوّر الأحداث ومن نفسها، ما لبثت أن أُصيبت بالارتباك ممّا يوشك أن يحدث، ومن تهوّرها في الانفتاح أو ممّا سيظنّه، أو من وضعها الشاذّ الذي يفترض ألاّ تعرّضه لتهديد العلاقات الطبيعيّة كي لا يهدّدها بدوره، ويتحوّل الهامش الذي تعيش فيه إلى واقع دائم يحتلّ كلّ مساحات حياتها. كانت صديقة قد أعدّت العدّة لتوفير مبلغ من المال يمكّنها من الخروج من الوحل الذي تتمرّغ فيه. لم تقم علاقات مع أحد من أيّ نوع كي لا يختلط متن حياتها بالهامش. حرصت أن ترسل القليل من المال إلى سلمى كي تعطيه إلى فاطمة، ما يكفي للعيش ولعدم طرح الأسئلة. لكنّها اليوم توشك أن تكسر القواعد التي وضعتها لنفسها. فالوحشة تتآكلها، واللزوجة تلتهم روحها على مدار الساعة والدقيقة والثانية. لم تعد تطيق نفسها. لم تعد قادرة على الاحتمال أو أن تواصل اجترار إنسانيّتها المستباحة من العدم...

في تلك المساحة الهادئة من المدينة التي اختارت أن تعيش فيها، بعيدًا عن الأعين والفضول، في شقّتها الصغيرة في برّ دبي، استعادت صديقة لأوّل مرّة في حياتها معنى أن تكون إنسانًا. تعمّدت أن تعامل نفسها أمامه باحترام لأنّها تاقت أن تجرّب وتفعل. بعيدًا عن المؤانسة، والمخيّم، وضجيج الأصوات

المكتومة فيه. بعيدًا عن الضيق، واللا! وبعيدًا عن كلّ اللاءات التي تربّت عليها حتى لم تعد تعرف ما هي النعم، أو ما هو المسموح به. قرّرت أنّها ستتحرّر من كلّ ما يخنقها أو يذلّها وتجرّب أن تكون طبيعيّة خالية من أيّ خوف.. أو أيّ تردّد.

أقفلت جوّالها، وتوجّهت على الفور إلى المطبخ كي تستعدّ وتستعيد نفسها من الماضي والحاضر، لتخطو بها أولى خطواتها على طريق من صنع يديها. حضّرت بعض المكسّرات وعصير البرتقال. لم تكن تقتني أيّ نوع من أنواع الخمرة. حافظت على مساحة شاسعة ما بين بيتها وعملها كمومس، وحرصت على أن تحيا فيه حياة طبيعيّة بعيدة عن أيّة مفردات أو أدوات ترتبط بمهنتها.

في طريقه إليها قاد وليد بسرعة واضطراب. اتّصل بها مرارًا ليسألها عن تفاصيل الطريق المؤدّية إلى بيتها، وحين اقترب منه اتّصل مرّة أخرى للتأكّد، وإن كانت ترغب في أن يحضر لها شيئًا معه.

ـ لا. لا شيء، شكرًا.

قالت واستغربت نبرة صوتها. نبرة اشتاقت أن تسمع نفسها تتحدّث بها من جديد. فسألها مجدّدًا: هل تشربين؟ ولم يكمل خشية أن يكون سؤالاً في غير محلّه فتسيء فهمه أو يدفعها ذلك إلى الحذر حياله. أجابت على الفور: لا. لا أريد أن أشرب. أشبه باللاّ والنعم كان جوابها. فاجأ وليد وحيّره فلم يكرّر السؤال ليتأكّد.

«على أيّ حال ليس بي رغبة للشرب هذه الليلة. سأكتفي بتأمّلها والتحديق بعينيها».

أخذ يحدّث نفسه، وبدأ يشعر أنّ شيئًا غريبًا يحدث. أحسّ أنّه يعرفها منذ زمن بعيد. تلك النبرة الدافئة في صوتها جذبته وأشعرته براحة كبيرة. كانت تبدو هادئة من غير برود، ومثيرة من غير صخب.. تداعت مفرداته في وصف ثنائيّاتها المتناقضة: باردة وحارّة. خافتة وصارخة.. بسيطة ومتكلّفة.. جريئة و... ابتسم وظنّ أنّه يوشك أن يكتب قصيدة عن صوتها.. أسرع قليلاً كي يصل إليها.

ما زال يتذكّر ملامحها جيّدًا مذ علقت عربتها بعربته!

ـ لا لم تعلق عربتها بعربتي بل أظنّها علقت بصنّارتي. معتدًّا بنفسه، أمعن بالتذكّر وأخذ نفسًا عميقًا... ثم:

ـ لا.. لا تبدو أنّها... ممّن يعلق في صنّارة أو شبكة صيد.

أطبقت صديقة على أفكاره مذ التقى بها، وظلّ طوال الأسبوع يستعيد ويستعيد في عقله سمرتها الأخّاذة وعينيها الحانيتين، وابتسامتها الآسرة، وشعرها الكستنائي المتناثر على أكتافها كخصل من ذهب. وهذا الجسد الرشيق الذي ما إن اقترب منه حتى شعر بأمواج مغناطيسيّة تجتاحه وتلفّه وتتماوج حوله كأنّه وسط منطقة جذب هائلة تتكوّن في المسافة إليها. في الطريق إلى شقّتها، عاد يسترجع كيف شعر حين نظر إلى عينيها في الكارفور.

ـ ما الذي يحدث لك يا وليد؟ مذ رأيتها وأنت أسير قوّة طاغية لا طاقة لك على مقاومتها. ماذا تفعل بنفسك يا وليد. محدّثًا نفسه.

ـ عاهدت نفسك على عدم التورّط بالحبّ ثانية. والآن ما بك؟ لا.. لا! إنّه مجرّد انجذاب! فكّر محاولاً إقناع نفسه. ثم:

ـ لا، هذه المرّة هنالك شيء مختلف. شيء لا أقوى على تفسيره وفهمه أو التقاطه. ها هي تطلبني. يبدو أنّها تعيش وحيدة. لا. لا. صوتها بدا محايدًا. لا غنج ولا دلال مع أنّه أكثر إغراء.

لم يعرف إن كان هو من قاد السيّارة أم هناك قوّة خفيّة تقودانهما معًا.. إليها. وصل، وما إن فعل حتى بدأ الاضطراب يجتاح جسده. حين قرع الجرس فتحت على الفور. كأنّها كانت بانتظاره خلف الباب. رأت وجهه كأنّها تفعل لأوّل مرّة. كان الحياء يلفّها. ولكي تخفيه رسمت بسمة صغيرة سرعان ما اتّسعت حين رأت اضطرابه وابتسمت أكثر.

مدّ يده مصافحًا فصافحته، ونظرت باتّجاه آخر كي تخفي اضطرابها هي الأخرى. تقدّمت أمامه ترشده إلى الصالة. وعلى أريكة ورديّة جلس وهو مأخوذ ببساطة الأثاث ورهافته. أريكة ورديّة تتصدّر الصالة، أمامها طاولة صغيرة بلون الخشب وُضعت عليها مزهريّة فخّاريّة بيضاء تحوي وردًا أحمر وزنبقًا رائحته تتبختر في المكان. إلى جانب الأريكة مكتبة يتوسّطها تلفاز صغير. بجانبه جهاز موسيقي يعمل على الأقراص الممغنطة وشرائط التسجيل في

آن. وعلى الرفوف تنتشر الكتب والتحف الصغيرة. في زاوية الغرفة طاولة طعام اصطفّت حولها أربعة كراسيّ. على الطاولة مفرش زهري مطرّز بورود ملوّنة صغيرة غاية في البساطة. إلى جانب الأريكة كرسي عريض تغطّيه طرّاحة سكّريّة اللون تزيّنها زهور ورديّة صغيرة تضفي على المكان إحساسًا آسرًا بالرومانسيّة.

بسيط وخلاّب ذوقها. فكّر، ثم وجد نفسه يردّد: بيتك رائع.

شعرت بالسعادة، فهذه أوّل مرّة يدخل أحد بيتها ويطري ذوقها. هي تعرف أنّه جميل، لكنّها لطالما رغبت في أن تراه في عيون الناس. لطالما أحبّت أن تسمع عبارات إطراء صادقة وطبيعيّة كأيّة ربّة بيت. أطال الوقوف بانتظار أن ينتهي سرحانها. وحين انتبهت لنفسها اعتذرت، وطلبت منه أن يجلس إلى الأريكة ففعل وهو مرتبك بعض الشيء. جلست هي على الكرسي المقابل. وانتظرت أن يبدأ الحديث. لكنّ الصمت انتشر في أرجاء الصالة. كان لا بدّ أن تفعل ما يبدّده. فلم تجد نفسها إلاّ:

ـ أهلاً وسهلاً. كيف الحال؟

ـ بخير.

أجاب وهو يحاول أن يسيطر على ارتباكه وأن يفكّر بطريقة أكثر بساطة وعفويّة. فلم يجد نفسه إلاّ وهو يسأل:

ـ أنت هنا منذ فترة طويلة؟ أحيانًا أشعر أنّي جئت بالأمس. هذا يعتمد على الزاوية التي ننظر منها للأشياء. لوجودنا. لدرجة ارتباطنا بالمكان...

وأخذ يفسّر ويوضح وهي تصغي وتصغي من أجل الإصغاء. الإصغاء إلى صوت آدمي يتردّد صداه في أرجاء شقّتها. لم تفكّر أو تتوقّف لتفكّر في ما يقوله أو تجيبه عن السؤال.

شعر أنّه يثرثر فتوقّف. سألها متردّدًا:

ـ أنت وحدك في المنزل؟ أقصد أنت هنا بمفردك؟

ـ نعم.

ـ لكنّ الأحذية الصغيرة أمام باب الشقّة..

لم تدعه يكمل وقالت: إنّها حيلة أستعملها كي أوحي أنّ ثمّة أطفالاً في الشقّة. أسرة! أنا وحيدة وأحتاج لأن أحمي نفسي من المتطفّلين أو لا أعلم..

حرصت صديقة على وضع أحذية متنوّعة المقاسات ومستعملة اشترتها من دكّان صغير لتصليح الأحذية، كي توحي لجيرانها الذين لا تعرفهم أنّ ثمّة أسرة تسكن في الشقّة. هي حيلة تعلّمتها من مدرّسة التقتها ذات يوم في صالون للتجميل. كانت المدرّسة أتت بمفردها للعمل وتركت وراءها خمسة أطفال مع والدهم المقعد إثر حادث اصطدام سيّارته مع ناقلة شحن كبيرة على طريق الزرقاء في الأردن. لم يمت لكنّه لم يعد قادرًا على العمل، ولم تعد هي قادرة على تلبية احتياجات أطفالها وزوجها العاجز، فوافقت على السفر إلى الخارج حين عرضت عليها صديقتها الفكرة بعد أن قرأت إعلانًا مبوّبًا في صحيفة «الدستور». وضعت عدّة أحذية أمام باب

شقّتها بمقاسات متنوّعة لأطفال محتملين، وتابعت حياتها كأمّ وربّة بيت أمام عيون الجيران وابتكرت حياة أمام زميلاتها المدرّسات مدّعية أنّها أتت بصحبة زوجها. كان الهدف أن تتخلّص من الأسئلة وهكذا كان. تعمّدت أيضًا أن تبني مسافة مع زميلاتها فلم تزر أيًّا منهنّ في منزلها وتذرّعت بانشغالها الدائم مع أسرتها، كي لا تضطرّ إلى مبادلتهنّ بالمثل. أذهلت القصّة صديقة وقرّرت أن تحذو حذو المدرّسة التي غصّت بالبكاء وهي تخبر قصّتها، وبكت هي بدورها. سرحت صديقة للحظات وهي تستعيد ذكرى تلك المرأة، لكن سرعان ما قاطع وليد سرحانها سائلاً:

ـ اعذريني على تطفّلي، ولكن هل لي أن أسأل لماذا؟ أقصد هل أنت. . .؟ ولم يكمل.

فهمت وقالت: أنا بمفردي، وأمّا لماذا فهذه قصّة طويلة تحتاج إلى وقت لأرويها. لا عليك خذ راحتك. أسئلتك لا تزعجني. جئت للعمل وصادف أنّني بمفردي.. قاطعها:

ـ ماذا تعملين؟

ـ أعمل مصفّفة شعر في صالون للتجميل..

لم تعرف كيف لم يداهمها الارتباك من السؤال.

ـ على أيّ حال أنا جئت لأعمل في هذه المهنة. حدّثت نفسها.

كان هذا هو الجواب الذي اعتادت أن تقدّمه حين تتعرّض

للسؤال. لن يدقّق أحد أو يطلب تفاصيل. وإن فعل كانت دائمًا تجد طريقة تتخلّص بها من تقديم أيّة تفاصيل. مهنتها كمومس حتّمت عليها أن تفعل ذلك كي تحمي ماضيها، أو ما يتبقّى من مستقبلها، إن كان ثمّة مستقبل ما. صارت تتقن بناء الحواجز بينها وبين الآخرين. حواجز سمحت لها أن تحمي نفسها وأن تتمتّع باستقلاليّتها وخصوصيّتها في آن.. لكنّها قذفت بها مع الوقت إلى وحشة كبيرة أخذت تتّسع وتتّسع حولها وداخلها إلى الحدّ الذي لم يعد شيء قادرًا على اختراقها إلى الداخل، أو اختزالها بامرأة واحدة. كان ذلك يُشعرها بالقوّة والضعف في آن معًا.

فوجئ وليد من جوابها وبدت الدهشة في عينيه، ونظر إلى الكتب، وبصمت وقف وتقدّم ليقرأ عناوينها، فزادت دهشته.

ـ مصفّفة شعر.. صالون تجميل؟ ما هذه الكتب إذًا؟

كانت تصطفّ على رفوف المكتبة روائع الأدب العربي والعالمي. من روايات نجيب محفوظ ودواوين محمود درويش ونزار قبّاني، ورواية الأمّ لمكسيم غوركي، والضحك والنسيان لميلان كونديرا. وأخرى عبارة عن تشكيل غير متجانس: كتب في السياسة والصحّة وعلم النفس وتربية الأطفال، وأشرطة ممغنطة قلّبها بين يديه، فإذ هي لفيروز وعبد الحليم حافظ وأم كلّثوم وعمرو دياب وكاظم الساهر..

عاد وكرّر السؤال:

ـ ما هذه الكتب إذًا؟ ما كنت أظنّ أو أفكّر يومًا أنّ مصفّفة

شعر يمكن أن يكون لديها أيّ اهتمام بقراءات من هذا النوع. ظننت في البداية حين رأيت المكتبة أنّك تعملين مدرّسة على الأقلّ. . أو شيئًا له علاقة بالكتابة أو ما شابه.

ـ لِمَ لا؟ إنّ عادة القراءة اكتسبتها مذ كنت صغيرة. وما زلت شغوفة بالقراءة.

رغم أنّ صديقة لم تكمل تعليمها بعد زواجها من أحمد، فإنّها ظلّت تقرأ وتمارس هوايتها وشغفها بالقراءة طيلة حياتها. ليس الشغف وحده هو ما دفعها لمواصلة القراءة، بل اهتمام أحمد بالكتب بكلّ أنواعها ولّد لديها علاقة مع عالم الكتب. صحيح أنّ معظم الكتب التي كان يحضرها ذات مواضيع سياسيّة وفكريّة، كانت تشاركه قراءتها حتى ولو كانت صعبة، لكن هذا الحضور للكتب جعلها تمضي في هوايتها من غير أن يشكّل ذلك أيّة غرابة أو يخلق أيّة اعتراضات أو أيّ استهجان. أضافت:

ـ أنت فلسطيني وتعرف كيف هو المخيّم. الشيء الوحيد الذي يربطنا بالعالم من غير أن نضطرّ لمغادرة المخيّم هو الكتب. . .

ـ نعم. نعم. معك حقّ. .

ـ وأنت ماذا تفعل؟ أقصد ماذا تعمل؟ قاطعته. .

ـ أنا؟ آه! أدرّس اللغة العربيّة وأكتب في بعض الصحف مقالات عن الأدب والشعر. وفي الوقت المتبقّي أنظم الشعر. أنا شاعر معروف نوعًا ما. ظننت أنّك عرفتني. . . في الكارفور!

ـ آسفة. صحيح أنّي أقرأ ولكن لا أتابع بانتظام واعذرني أنّي لا.. لا أعرف عنك. ربّما قرأت لك ولكن لا أذكر.. عملي يمتصّ معظم وقتي ويبدّد ذاكرتي...

ولكي تتخلّص من إحراج ربّما تسبّبت به سألته:

ـ أترغب بالقهوة أم بالعصير؟

ـ نبدأ بالعصير.

تركته وذهبت إلى المطبخ لتعود وهي تحمل صينيّة عليها كوبان من عصير البرتقال وبعض المكسّرات، وضعتها على الطاولة وقالت: تفضّل.

تناول كوب العصير.. رشف جرعة صغيرة ورفع عينيه إليها كمن يوشك أن يطرح سؤالاً. ثم توقّف.. تردّد.. تشجّع.

ـ مطلّقة؟ سأل.

ابتسمت: لا!

....

ـ أرملة شهيد!

ـ آسف..

ـ عادي. لا تهتمّ.

ـ لم تنجبي منه أولادًا؟

ـ بلى ثلاثة!

ـ صحيح؟ أين هم؟

ـ في بيروت. مع جدّتهم.

ـ لماذا ليسوا معك؟

ـ عملي لا يسمح.

ـ ولكن كيف؟ كيف تستطيعين؟

ثم توقّف وأحسّ أنّه يبالغ في التطفّل، فصمت.

...

... آسف.

وما إن قال كلمته ونظر إليها حتى تدحرجت دمعتان من عينيها مسحتهما بسرعة وابتسمت. فكرّر: آسف! آسف على تطفّلي.

ـ لا بأس.

أكملت وهي تمسح دموعها، ثم بادرت هي بالسؤال وقذفت الكرة في ملعبه.

ـ أنت متزوّج؟

ـ لا.

ـ كم عمرك؟

ـ ستّة وثلاثون عامًا.

ـ لِمَ لَمْ تتزوّج؟

ـ لا أعرف.. ربّما لم أجد المرأة المناسبة.

ـ وما هي المرأة المناسبة؟

ـ لا أعرف.

ـ كيف لا تعرف؟

ـ لا أعرف. أبحث عن الحبّ ولا أجده. وإن وجدته فسرعان ما يتبدّد. سرعان ما يتحوّل إلى رغبة في الالتزام. أنا لا أفهم النساء ربّما. حين تحبّ المرأة تجعلنا نعتقد أنّها هي. تكون مجنونة بالحبّ، وبعد وقت من العلاقة تبدأ تفكّر بالبيت وبالأمور المادّيّة وتطلّعات لا علاقة لها بالحبّ في الأساس. وتبدأ تخطّط للزواج وتطالب بأمور لا أستطيع فهم علاقتها بالحبّ.. تقاطعه:

ـ ولكن على الحبّ أن يفضي إلى الزواج.. إلى الرغبة في البقاء مع الرجل الذي أحبّته. ما المشكلة في ذلك؟

ـ لا مشكلة. ولكن حين تتخطّى الالتزامات الماليّة حدود الممكن تصبح العلاقة مستحيلة. حتى الحبّ يتبدّد.

ـ ولكنّ الزواج يحتاج إلى إطار مادّي. بيت وأثاث وأولاد يجب أن يذهبوا إلى المدارس وإلى الطبيب.. يجب أن يأكلوا ويلعبوا و. و. و. وكلّ هذا يحتاج إلى فلوس. الأحلام شيء والواقع شيء آخر. صدّقني. الواقع غير رومانسي على الإطلاق. الحياة مكلفة وقاسية.. ألا توافقني الرأي؟

ـ بلى.. بلى. أنا معك.. لكن!

ـ لكن ماذا؟

ـ لكن ليس بمقدوري أن أؤمّن ذلك كلّه.

ـ إذًا لا تتزوّج.

ـ هذا ما أفعله.

ضحك وضحكت. وحين انفرجت ابتسامتها أسرته العذوبة، فصمت وراح يتأمّلها مسحورًا. أطرقت حياء. ولكنّها ظلّت تبتسم. هذه المرّة كانت ابتسامتها مزيجًا من الخبث والبراءة.

ساعتان أمضياها بالحديث والثرثرة في مواضيع عديدة إلى أن ساد، بعد وقت، صمت ارتسم على محيّا صديقة قبل شفتيها، بدّدته تلك النظرات المتفحّصة التي صارت تسرقها خلسة فيما وليد يواصل الثرثرة بحماس.. إلى أن انتبه لنظراتها واخترقه صمتها وابتسامتها العذبة مجدّدًا، فسكت. ومن غير أن يشعر وجد نفسه يسألها بفضول وقلق:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء. وواصلت الصمت والتبسّم..

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. ماذا ماذا؟ لا شيء!

ـ لماذا تجلسين بعيدة؟

ـ لست بعيدة. أنا هنا. أقرب ممّا تتصوّر.

ـ لِمَ لا تجلسين بقربي؟ تعالي!

ـ أنا هنا أفضل.

كرّر طلبه، وكي تجاريه ولا يشعر بالارتباك الذي يعتريها أو يظنّ أنّها خائفة منه قرّرت أن تجازف. قامت من مكانها وجلست بقربه بكلّ ثقة.. وهي التي لم تكن واثقة ممّا سيحدث. فجسدها يرتعش تمامًا مثلما فعل في أوّل لقاء لها مع أحمد.

بعد أقلّ من ثانية أمسك بيدها، نظر إليها وراح يتأمّل أناملها الرفيعة. «يدك صغيرة».

ابتسمت: لا. يدك كبيرة.

قلب يدها وقرّبها من شفتيه. تردّدت، ولكنّها تركته يقبّل باطن كفّها. اقتربت يده الأخرى من وجهها فأشاحت. عاود.. فتركته.

ـ أنت جميلة. أجمل وجه رأيته في حياتي!

...

ـ أنت تعرفين أنّك جميلة؟

ابتسمت ونظرت في عينيه: طبعًا!

اقترب وحاول أن يقبّلها، أشاحت وجهها فوقعت القبلة على شعرها.

ـ ما بك؟ خائفة؟

ـ لا . .

اقترب مجدّدًا وقبّلها في جبينها. سكتت.

اقترب أكثر وأكثر، هذه المرّة بجسده، وأخذها بين ذراعيه في رقّة ثم. . رفع ذقنها. نظر في عينيها. . في شفتيها. . اقترب أكثر. هذه المرّة لم تستطع أن تفلت. شفتاه على شفتيها في قبلة رقيقة متقطّعة، حينًا متواصلة حينًا آخر. يقبّلها كأنّما يتنفّسها. استسلمت وهي لا تعرف لماذا!

مادت الأرض بها. للحظات أحسّت أنّها تختفي. . تضمحل. . تذوب. . تتلاشى. . كأنّما هي فراشة تطير وسط الحقول وتنتشي برحيق أزهارها. .

لم تكن اللذّة التي أخذت جسد وليد. . بل شيء يوشك على الانبعاث. كان جسد صديقة طريًّا ودافئًا. رائحتها أخّاذة وأنفاسها الحارّة طيّرت صوابه، فمضى في تذوّق نكهتها وهو لا يدري في أيّ اتّجاه يذهب. شعر أنّه وسط المتاهة مجدّدًا. قبّلها أكثر. هذه المرّة أوغل في فمها وتذوّق حلاوة لعابها. شعر أنّه يكاد يغيب عن الوعي. أنّه يتشرذم. هي خافت من الذوبان وأرادت أن تتوقّف. لم تستطع. وكلّما حاولت الابتعاد التصق أكثر.

ـ لحظة أرجوك!

ـ ما اسمك؟

فوجئت بسؤاله لكنّها أجابت: صديقة.

ـ أعرف.. أعرف. أقصد اسمك؟

عندها شعرت أنّها فرصة للابتعاد.. وابتعدت، نظرت في عينيه تؤكّد: ـ اسمي صديقة.

عندها توقّف وابتسم: اسمك صديقة! ما هذا الاسم؟

ـ إنّه اسمي. ماذا ظننت؟

ـ لا. لا. اعتقدت أنّك تقصدين أنّك صديقة!

ـ أنا صديقة.. وصديقة بالفعل. أرجوك توقّف. لا أستطيع.

ـ لا تستطيعين ماذا؟

ـ لا أستطيع.. أرجوك.

توقّف واعتذر:

ـ أنا آسف. ولكنّي أنا أيضًا لا أستطيع. أشعر أنّي أعرفك منذ زمن بعيد. هذا غريب. ولكنّي أشعر أنّي أعرفك. أنّك مألوفة. اعذريني لقد تخطّيت حدودي. معك حقّ.

ـ أنت لا تعرفني. ربّما لا تريد أن تعرفني حتى؟

خافت صديقة من كلامها أو ممّا فهمه منه، وسارعت إلى القول كي لا تثير شكوكه وقالت كمن يحاول أن يوضح:

ـ شاعر ومصفّفة شعر؟ يا للهول (ضاحكة)!

ضحك هو الآخر، وبدل أن يعلّق قبّل شفتيها قبلة خاطفة أراد أن تكون مفعمة بالاحترام! فكانت!

سرحت صديقة مجدّدًا وهي تفكّر بما يحدث لها وفكّرت:

ـ لماذا أمنع نفسي من أن أعيش بشكل طبيعي.. إنّه فرصتي للخروج من النفق. من العتمة، من نار الوحشة والغربة. لكنّه رجل ككلّ الرجال. ماذا سيحدث لو عرف حقيقة ما أعمل. أكيد سيبتعد. ما همّني. حتى لو فعل. أقلّه أبدّد هذا الفراغ لبعض الوقت. لمَ لا؟ لا تكوني غبيّة يا صديقة. أنت خاسرة، خاسرة! ماذا ستخسرين بعد؟!

تجهّم وجهها فلم يفهم وليد سرّ هذا السرحان والتجهّم. ظنّ أنّه تسرّع. ابتعد وقرّر أن يصبر عليها. أن يصبر على نفسه. لم يفهم سبب تردّدها مع أنّها دعته إلى منزلها وهي بالكاد تعرفه. لم يسأل ولن يسأل. ربّما هي مرتبطة بشخص آخر. ربّما تخلّى عنها وتحاول أن تتجاوز محنتها. أن تدفن الحبّ بحبّ آخر. تجهّم وجهه هو الآخر وفكّر أيضًا محدّثًا نفسه:

ـ لكن هل تعرف هي أن.. أنّني لا أحتمل المزيد من الخسارة. أنّني ربّما مثلها لا أحتمل الخيبة. ولكن لا! أنا خاسر خاسر على أيّة حال. لم تعد تضيرني الخسارات. ربّما ليست كما أعتقد. ربّما هي خائفة منّي. معها حقّ. ربّما أتسرّع. ربّما علينا أن ننتظر. ربّما هي لحظة سحر لا أكثر. ولكن لماذا أشعر أنّي أعرفها. لماذا هي قريبة إلى هذه الدرجة وأنا بالكاد التقيت بها. لماذا امرأة بهذا الجمال تعيش لوحدها؟ وحيدة؟ لا بدّ أنّ في حياتها سرًّا كبيرًا!

وما بين الواقع والوهم، عاد وليد يتأمّل وجهها الدافئ ويمضي في رحلة اكتشاف جديدة. اكتشاف سرّها. خاف، وفكّر:

ـ لا. لا. حين تنكشف المرأة لي تفقد سحرها. ويجب أن أدعها تحافظ على سرّها. هكذا أظلّ عالقًا في البداية. عليّ أن أستفيد من أخطائي مع النساء ولا أكرّرها معها. هذا إذا أردت أن أحتفظ بها. تبدو مختلفة. ربّما هذه المرّة...

ـ أتشرب القهوة؟ قاطعت صديقة سرحانه بعد أن بدّد الصمت سرحانها وأعادته إلى رشده بعض الشيء.

ـ نعم. نعم. لِمَ لا. أنا آسف. تماديت وتخطّيت حدودي؟ أجابها قلقًا كمن يسأل أو يتأكّد من ردّة فعلها.

وكي تزيح الارتباك عن نفسه، اقتربت وقبّلته قبلة خاطفة. ومضت إلى المطبخ لتحضير القهوة. تبعها بعد قليل وأخذ يراقبها وهي تصنع القهوة ويتأمّل أناقة حركاتها. كانت صديقة تبدو كامرأة آتية من عالم آخر. امرأة لم تُمَسّ وعصيّة على الامتلاك. نجمة قصيّة. تراها ولا تملك القدرة على الإمساك بها. لم يجد نفسه إلاّ وهو ـ رغم تردّده ـ يحوطها بذراعيه من الخلف. لم تدر هي لماذا استسلمت لعناقه؟ هل لأنّها أحسّت باحتراق لذيذ يتسرّب إلى وجهها وينسلّ إلى روحها ويبعثرها ويفقدها القدرة على التركيز؟ في تلك اللحظة من تساؤلاتها فارت القهوة وانطفأت النار لتشتعل صديقة بالرغبة. استدارت واستسلمت لعناقه. جُنّ وأخذ يقبّلها ببطء وقوّة. انهارت، ولم تعد تقوى على الوقوف. رفعها ونظر في

عينيها وعاود تقبيلها. وما بين اللا والاستسلام وبين أصابعه تعبث في شعرها وتغرق في النعومة، امتدّت يدا وليد تحت ثيابها تعبث في منطقة الصدر. حاول أن يفك حمّالة صدرها. قالت: لا. لا. لم يسمع. أكمل. هي تقول: لا. وهو لا يتوقّف. انهارت بالكامل وشعرت أنّها تتحلّل إلى جزيئات تتطاير في فضاء اللذّة. وهناك في المطبخ.. على أرض المطبخ أخذها وهو لا ينفك يردّد يا إلٰهي.. يا إلٰهي، وآهات صديقة تنفلت وتعزف موسيقى الجسد المحترق بالنشوة، والمحلّق في فراغ العدم وفي فضاء الشوق إلى الذات و... الآخر!

حين صرخ وليد من جنون النشوة لحظة وصوله كان جسد صديقة ينقبض وينتشر، وعيناها تغرقان إلى قاع سحيق وسط أمواج عاتية تنبعث من أطرافها وتتجمّع في نقطة واحدة، لتنتشر من جديد، وتنطلق في مساحات جسدها إلى ما لا نهاية. صارت تنقبض وتتمدّد وتفيض ثم تنقبض وتتمدّد وتفيض... وكأنّما الكون هي أو كأنّها عادت من شتاتها.

حين نظر إليها كان وجهها يشعّ ويتلألأ وشفتاها تنفرجان على اتّساعهما في آه لا تتوقّف عن الانبهار من لحظة الخلق. أرخى جسده قليلاً عليها. قبّلها في رقبتها وخلف أذنها وقال: أنت رائعة! وبهدوء عاد وقبّلها في شفتيها، ثم بين عينيها، ثم قبّل عينيها واحدة تلو الأخرى، بينما هي تستسلم للصمت كي لا تخدش الكلمات ما تعجز عن وصفه الكلمات.

حين أفاقت ونظرت حولها لترى زوبعة من الثياب تطايرت في أرجاء المطبخ. . عادت إلى الواقع! ابتسمت ونظرت في عينيه مازحة: أعجبتك القهوة؟ فقبّلها وقال: جدًّا. ألذّ قهوة شربتها في حياتي. ألذّ ممّا كنت أتوقّع يومًا.

رائحة خانقة أخذت تسيطر على فضاء المطبخ. تذكّرت صديقة أنّها لم تطفئ النار عن القهوة وأدركت أنّ الغاز المنبعث من العين المخصّصة لغلي القهوة بدأ ينتشر ويحثّها أن تدير المفتاح وتقفل. أسرعت لإطفائها ونظرت إلى وليد باسمة، فقال: من الحبّ ما قتل! أو قد يقتل!!

لم تفكّر صديقة، ولم ترغب في أن تفكّر في ما حدث. استسلمت للسعادة كطفلة لا تنتظر إلاّ الفرح. وهذا الجسد الذي كان ينتقل من فراش إلى آخر ومن جسد إلى جسد كأنّما هو جسد آخر. وكأنّ ذلك الجسد المُباح لكلّ شارٍ مضى بعيدًا وحلّ مكانه جسد آخر. وداخل قطار النسيان، رحل ماضيها، وأطفالها، والمخيّم. عادت روحها إليها، وشعرت بالمطر يتدفّق غزيرًا من جسدها. مطر حنون غمر مساحات الصحراء التي أطبقت عليها منذ؟ لا تعرف متى! ربّما منذ أن بدأ أحمد لا يرى فيها غير جسد أُعدّ لتفريغ احتقانه! سرعان ما انطفأت شهوتها تحت إيقاع رغيف الخبز والواجب الزوجي والحفاظ على ماء وجه مجتمع أغلق على نفسه جدران النكبة، ومضى في ألمه يجترّه ويبتلع أيّة محاولة للبكاء أو الضحك أو الاعتراض، أو حتى الاستسلام للنكبة. في تلك

الأيّام بدأ أحمد يتململ من سلوك قيادات الثورة وفسادهم المالي الذي فاحت رائحتهُ في المخيّمات وخارجها. لم يتفوّه بكلمة وأكمل كالجميع أسلوب التطنيش والمراوغة بانتظار أن تتبدّل موازين القوى الداخليّة، وهو في صميمه يدرك أنّ المساومة على أموال الشهداء وعائلاتهم هي نكبة أشد من نكبة ١٩٤٨. مع الوقت أثّر صمته على الفساد في علاقته مع نفسه وفي علاقته مع رفاقه في الكتيبة الذين صمتوا أيضًا. منهم من صمت على مضض، ومنهم من تواطأ ضمنيًا بالصمت للحفاظ على مكتسبات البقاء في كرسي القيادة، أو التخلّق بأخلاقيّات سادت معظم الفصائل. لم يجر أيّ نقاش جدّي في العلن لمناهضة هذا الفساد أو إعلان الحرب عليه رغم محاولات أحمد الخجولة. في أحسن الأحوال جرت نقاشات عن أولويّة الكفاح المسلّح ضدّ إسرائيل. كانت هنالك محاولات فرديّة للنقاش انتهى بعضها إلى مصير الفنّان ناجي العلي الذي لم يُكشف النقاب عمّن تورّط باغتياله. اغتالوه ردًّا على رسوماته الكاريكاتوريّة وقالوا إسرائيل. قالوا إنّ المستهدف هو «حنظلة» ولم يُجروا تحقيقًا جدّيًا. لطالما أُعجبت صديقة برسوماته الكاريكاتوريّة وحرصت على متابعتها في صحيفة «السفير» يومًا بيوم. كان أحمد يعلّق على إعجابها بناجي العلي بأنّه سذاجة ويتّهمه بالانتماء لمعسكر الاتّحاد السوڤياتي التحريفي. كانت صديقة تصرّ على إعجابها وتردّد:

ـ شو خصّ انتماؤه؟ أنا شايفة إنّو الوحيد اللّي عم يتجرّأ يحكي باسم الفقرا والشعب. مش مهمّ سوڤياتي أو ماوي طالما

بيقول اللي لازم ينقال. الثورة لتحرّر الناس من الفقر وترجّعنا على بلادنا مش عشان تعبّي جيوب القيادات الفاسدة بالمصاري ورؤوسهم بالتكبّر على أبناء المخيّمات. هنّي بواد وأهل المخيّمات بواد. وبعدين عم نضيّع اتّجاه البوصلة. مين عم بيحارب غيركم وكم واحد شريف هون وهون بالتنظيمات. على شو خايف يا أحمد؟ لازم نصرخ فيهم ونحطّ النقاط على الحروف. هذه أموال الشهداء واللاجئين! حرام والله حرام. نحنا صرنا شهود زور!

كانت تحكي وتحكي إلى أن فقدت الرغبة بالكلام واستسلمت لحزن عميق امتصّها زفرة زفرة. منذ ذلك الوقت فقدت صديقة إيمانها بالقيادة وبأحمد ورفاقه ولم تعد تؤمن بشيء. هكذا شعرت صديقة في تلك الأيّام، وأثبتت التجربة لاحقًا أنّ شعورها كان في محلّه، وأنّ أحمد تغيّر وفقد الحماس بل شيء ما في داخله انطفأ.

تجهّم وجهها حين تذكّرت أحمد وتلك الليالي التي يأتيها ليفرغ احتقانه في داخلها في تلك الغرفة الضيّقة، من غير أن يسألها عن الضياع الذي كان يمتصّها وهي تنتظر أن يأتيها شهيدًا مسجّى في نعش على طريق لا تؤدّي إلى فلسطين. وكانت كلّما لمحت سيّارة مسؤول التنظيم الـ BMW التي تمتاز على غيرها من السيّارات الأخرى بسرعتها، كلّما أحسّت أنّ فلسطين صارت أبعد، وكلّما ازداد خوفها من عودة أحمد مسجّى في نعش.

لم يفهم وليد هذا التجهّم المفاجئ ومضى يسأل: ما بك؟ لِمَ أنت حزينة هكذا؟

ـ لا شيء . .

وتململت، ترغب بالذهاب إلى المرحاض. وقف وضمّها بين ذراعيه. قبّلها في جبينها وردّد مجدّدًا بصوت خافت: أنت رائعة!

حين دخل وليد إلى المرحاض شعر أنّه كمن أُقحم في حلم. فوجئ بديكوره البديع. كان أشبه بقصر صغير من قصور ألف ليلة وليلة. سيراميك أزرق لا هو بالفاتح ولا هو بالغامق، يغطّي أرضيّته. ومغطس عريض بعض الشيء أقلّ زرقة من الجدران المصنوعة من البورسلان الفاخر. على جنباته فتحات معدنيّة مدوّرة من الكروم تنتهي برشّاش معلّق بأعلى الجدار، وتفصل بين المغطس والحائط المقابل حافّة صغيرة على جانبها جهاز ثُبّتت فيه ثلاثة أزرار كهربائيّة. بالقرب منها وعاء زجاجي شفّاف يحتوي على أزهار مجفّفة وآخر مملوء بأملاح ذات لون برتقالي، وزجاجات عديدة فيها سوائل ملوّنة لم يفهم ما هي، وسلّة صغيرة من القشّ تحتوي قطعًا ملوّنة تشبه قطع الصابون تنبعث منها روائح الياسمين واللافندر والورد والليمون. ستارة بيضاء من طبقتين تتدلّى من السقف على الجانب الفاصل ما بين المغطس وكرسي المرحاض. واحدة صُنعت من نايلون فاخر لتمنع تسرّب المياه إلى خارج المغطس أثناء الاستحمام والأخرى ستارة مزمومة في الأعلى وفي الوسط مصنوعة من الساتان البرّاق، رُبطت إلى جانبي المغطس، فيما الأرض مغطّاة ببساط ناصع البياض تزيّنه زهور زرقاء. أمّا كرسي المرحاض فلونه أزرق فاتح بلون المغطس. تتوسّط المغسلة

الممتدّة في الزاوية رفًّا من الغرانيت المائل إلى الكحلي تحته خزائن صغيرة تمتدّ إلى الأرض بيضاء اللون لديها مقابض كحليّة مدوّرة وفاخرة.

عُلّقت فوق الجدار المحاذي خلف كرسي المرحاض لوحتان صغيرتان إحداهما فوق الأخرى تمامًا، إحداهما عبارة عن مشهد لعناق حارّ بين امرأة ورجل عاريين، وأخرى لامرأة وحيدة عارية متمدّدة على أريكة بالكاد تبدو ملامحها. على الجدار المقابل رفّان صغيران صُفّت عليهما مجموعة من الكتب والمجلاّت. فوق المغسلة مرآة كبيرة مستطيلة تغطّي الزاوية فتكسر حدّتها وتتّصل بحافّة المغسلة مباشرةً وراء حنفيّة متدلّية من الكروم، فيها خلاّط للمياه الساخنة والباردة. على حافّة الغرانيت انتشرت بعض الشمعدانات الصغيرة لشموع مضاءة انبعثت منها روائح زكيّة جنبًا إلى جنب مع أدوات زينة من أحجام لم يفهم وليد وجهة استخدامها. حتى ورق «التواليت» كان مزيّنًا بزهور زرقاء تنبعث منها رائحة زكيّة.

قبل أن تخرج صديقة من «التواليت» كانت قد فتحت حنفيّة المغطس وعدّلت حرارتها وأقفلت أرضيّته بقطعة كاوتشوك كي تملأه بالمياه الساخنة، ووضعت داخله قطعة ذات لون بنفسجي سرعان ما أخذت ترغي بزبد هائل كان يتضخّم ويتكاثف كلّما ازداد تدفّق المياه داخل المغطس..

لم يفهم وليد لماذا كلّ هذه الرفاهية في مرحاض؟! ظنّ أنّ

لدى صديقة هوسًا في تزيين مرحاضها لم يره في أيّ مرحاض دخله من قبل. حتى المناشف في حمّام صديقة كانت تنمّ عن ذوق رفيع وحسّاس لم يره في أيّة مناشف استخدمها حتى في بيت ذاك الشاعر الإماراتي صديقه. كانت مناشف صديقة ناعمة وطريّة بيضاء مزيّنة بزهور زرقاء ناعمة. كلّ شيء محسوب حسابه ليشكّل ذلك التناغم الرومانسي للأزرق بين الأشياء مجتمعة.

حين أغلق الباب وراءه، انتشرت سحب البخار لتضيف مزيدًا من السحر والشاعريّة على المرحاض. ذُهل وظنّ أنّه في عالم الأحلام. عالم بالكاد استيقظ منه حين طرقت صديقة الباب لتدخل وبيدها منشفة كبيرة بيضاء بلون الثلج ناعمة وطريّة وضعتها على ماسورة ثُبّتت بالقرب من المغطس، وقالت له والابتسامة لا تكفّ تتفتّح على وجهها الرطب: هيّا صار الحمّام جاهزًا.

كان أكثر من نصف المغطس قد امتلأ بالماء الدافئ، تعلوه رغوة غطّت مساحة المياه المتجمّعة، حين انصاع كالمذهول ودخل في المغطس، ما لبثت أن تقدّمت صديقة من الأزرار الكهربائيّة وضغطت على أحدها فبدأت دفقات من المياه تنبعث بقوّة من الفتحات المنتشرة حول جوانبه وتضرب بلطف جسد وليد. ضغطت زرًّا آخر فإذ بذبذبات تجتاح المياه وتدغدغه في كلّ أنحاء جسده. فزع وهمّ أن يقف فضحكت صديقة بصوت عال ممزوج بشقاوة طفوليّة وقالت: هذا مسّاج بالمياه لا تخف، ستشعر بالراحة بعد قليل. فقط استرخ واستسلم. نظر إليها مستغربًا: ما هذا؟

ضحكت وقالت: جاكوزي! ألم تسمع بالجاكوزي؟ نعم سمع وليد عنه ولكنّه لم يجرّبه أبدًا. فكّر!

ـ هذا هو إذًا الجاكوزي. إنّه شيء رائع.

ـ وضعت لك بعض الأملاح البحريّة المشبعة بالأعشاب واللافندر حتى تساعدك على الاسترخاء.

ـ ولكنّي مسترخ!

ـ استرخ أكثر.

كانت صديقة ما تزال تلفّ منشفتها البيضاء حول جسدها، ولتخفي الحياء الذي ما زال يسيطر عليها رغم ما حدث، وكأنّها ما عملت كمومس قطّ. كان شعرها ينسدل على كتفيها مثل عتمة تتخلّلها خصل ذهبيّة تلوّنت بضوء الشموع، فزادتها لمعانًا وأضرمت بجمالها مشاعر وليد مجدّدًا وهو يشهدها تتحرّك في الأرجاء الضيّقة للحمّام. اقترب منها ليجاري هذا الهوس بالاستحمام على ضوء الشموع وروائح الزهور وسُحُب البخار وشدّ المنشفة بقوّة، فانكشف الجسد الرشيق أمام ناظريه والذي كان منذ قليل لا يراه إلاّ بيديه.

لامس كتفيها وانزلقت يداه تتحسّس ثدييها المتدلّيين فوق جسده. أغمضت عينيها فيما يدا وليد تواصل التحسّس.. رقبتها.. وجهها.. شفتيها.. ثم تنزل مجدّدًا إلى كتفيها.. ثدييها ثم:

ـ كم أنت جميلة وكاملة!

أمسك يدها، ومن غير أن ينتظر أيّة ممانعة أو رغبة، شدّها برفق إليه وقبّلها. كان نصف جسدها قد صار داخل المغطس.. شدّها أكثر وهو يواصل تقبيلها فاندفعت برفق فوقه.. لا. ليس تمامًا، بل إلى جانبه وتدلّى ثدياها ولامسا أعلى صدره. اهتاج وليد لحظة تماسّهما وشعر أنّه يوشك على الغرق فيها. كان الضجيج الخافت الذي تطلقه الحنفيّة وفتحات المياه قد بدأ يزعجه قليلاً. ضغط على أحد الأزرار ليغلق الفتحات فازداد تدفّق المياه قوّة وضجيجًا. أفزعه، فارتجف جسده بعنف. ضحكت صديقة من كلّ قلبها حين قفز وليد إلى الخلف متراجعًا واقتربت من الأزرار أطفأتها جميعًا. ومن ثم أغلقت الحنفيّة وعينيها واستسلمت لعناقه وقبلاته وأصابعه تحسّس تضاريسها وفتحاتها. دسّ أصابعه في فتحتي أذنيها وهو يواصل تقبيلها، وصار كلّما فرك شحمتي أذنيها بأصابعها تهتاج ويتلوّى جسدها كأنّما يحاول أن يفلت من بين يديه فلا يقدر. صارت تنزلق وتنسحب إلى جدار المغطس ثم تعود للالتصاق بجسد وليد، وهي ما بين الانزلاق والانسحاب والالتصاق والانسحاب والالتصاق، تلفّ ذراعيها حول عنقه وتتعلّق به فيلامس ثدياها صدره ويشتبك فخذاها بفخذيه وتلتصق به أكثر، في رغبة عارمة بالاندماج. وكالمجنون حين يصل إليها يدخل، كأنّه ينزلق في هوّة زئبقيّة لا هي تمتصّه ولا هي تقصيه، تجرّه صديقة إليها وتبعده في آن، كأنّما تسعى إلى تبديده أو تفتيت ذاتها أو محوهما معًا، وسرعان ما يصرخان معًا بآه آتية من أعماق جسدين تحوّلا إلى أثير سابح في فضاءات تتوالد وتتوالد على شكل

دوائر لولبيّة وتلفّهما، فشعرا بدوار كادا معه يغرقان في مياه المغطس. وكأنّ الرغبة بالاندماج المطلق للجسدين المنتشيين تحوّلت إلى لحظة التقاء الحياة بالموت كلحظة نقيّة صافية لا تشبه بنقائها أيّ شيء عرفاه يومًا. كأنّما الانبعاث هو الضفّة الأخرى للزوال. تلاقيا كما لو كان مقدّرًا لهما أن يلتقيا. لم يعد العالم الملموس يكفيهما فخرجا من جسديهما وتطايرا في المساحة الأزليّة حيث هناك فقط، فقط هناك، ينعدم الزمان والمكان ولا يبقى منهما غير ذرّات تنفلت عن بعضها البعض إلى ما لا نهاية، تحاول تشكيل نفسها على نحو جديد، يلدهما جسدًا واحدًا وروحًا واحدة. جسد لا تشمّه بل تتنشّقه. جسد لا يُرى.. لا يُمسّ، لا يُلمس، لا يُصغى إليه. فقط. فقط يتلوّى على إيقاع الشهوة المحلّقة في فضاء رغبة تهذي لا تدري وجهتها، لا تنشد سوى السموّ بالجسد خارج حواسّه. خارج حدود الكون، جسد يُعيد خلق نفسه على هيئة جديدة يمّحي فيها الحدّ الفاصل ما بينه وبين الروح ويحقّق لحظة خلوده. يكتب أسطورة خلقه بعناصر غير مرئيّة غير محسوسة، ولا تعود به حاجة للنار أو الماء.. للهواء أو التراب. جسد يخلق نفسه من نفسه ومن الآخر ويُعيد خلقه من جديد، من تلك الآهات المتهدّجة، واللهاث المتقطّع والأمواج المغناطيسيّة التي تداهم جسدَيْ وليد وصديقة، ولكنّها سرعان ما تنسحب تبحث عن أمواج أخرى تجيء وتذهب، ثم تجيء وتتراجع، وفي كلّ مرّة يتسارع تلاطمها وتتكثّف إلى الحدّ الذي لم تعد صديقة قادرة على ضبطه، ولم يعد وليد راغبًا في السيطرة عليه، فتركا للجسدين حرّيّة أن

يصدحا معًا في أغنية واحدة، في نغم واحد لإيقاع يجري في عبث ويتهادى في دوار الشتات!

شعر وليد كأنّما يغمس ريشته في جسد صديقة المتفتّح على كلّ احتمال فاق بألوانه ما يمكن لمخيّلة أن تستعيره من الوجود المحسوس. وظلّ يغمس ويغمس وصديقة تتلوّى وتتلوّن وتنبهر وتعود لتتلوّى وتتلوّن وتنبهر وتشهق، ووليد يغمس ريشته ويتبعثر في أنحاء صديقة ويشهق هو الآخر، إلى أن شقّ فضاء المرحاض صراخ بدائي لم يُرتّب إيقاعه، أو كأنّما هي حياة تولد من أحشاء لحظة مطلقة. أو كأنّما هما جسدان يولدان معًا، كلّ من الآخر، على شكلّ ومضة أضاءت عتمة ليلهما الكالح. كأنّها شمس أشرقت في كون شكّلاه معًا تطايرت فيه نجوم وكواكب تحيطها مجرّات، ومجرّات تحيطها أكوان وأكوان، ولم يبق منهما غير صدى نشوة أفلتت من إسارها. صارا رائحة. وحلّ صمت لم يبدّده سوى ظلال الشموع والتوالد الأزلي لفيض النشوة..

صديقة جسد ينتشر في سهوب لا أفق لها، ووليد يمتصّه خواء جميل يجعله ينفرط حبّة حبّة بعدما تخلّت الجاذبيّة عن ضمّ أطرافه وجمعها في جسد.

عشر دقائق كانت قد مضت حين تمكّنت صديقة من فتح عينيها لترى وليد يحدّق بوجهها بحنان غير مصدّق نفسه. اللحظة. المتخيّل وهو يصير واقعًا.

ـ إنّك أجمل من أيّة قصيدة كُتبت. بل أنت القصيدة تكتبني.

وبحركة دافئة وضعت أطراف أصابعها على شفتيه تسألهما الصمت.

أغلقت عينيها وعادت وفتحتهما، ثم أغلقت وفتحت، وفي كلّ مرّة تفعل تراه يواصل التحديق بها، كأنّما يحاول أن يلتقط اللحظة بعينيه ويحتفظ بها إلى الأبد.

لم يعد يهمّه شيء. لا صوت ناظر المدرسة السقيم، أبو كرش، وهو يطلب إليه تسليمه دفتر التحضير قبل أن يلقي الدرس على التلامذة، وكأنّه فعلاً يستطيع أن يفهم قواعد اللغة والنحو. ولا الوجه الأصفر لرئيس تحرير الملحق الثقافي في الصحيفة المحلّيّة حين يقابله ويوحي إليه بأنّه يشعر بالقرف ليخفي ضآلته فيما يواصل اصطناع التواضع. ولا مدير المدرسة الذي يوقفه من حين لآخر حين يلتقيه في أروقة المدرسة ليعطيه محاضرة عن الحزم والصرامة مع التلامذة. ولا حتى معاناته في إيجاد عمل من غير التعرّض لذلّ السؤال. لم يعد يهمّه شيء لأنّه كان مبهورًا. لم يصدّق أنّ لحظة كهذه كانت ممكنة إلاّ في مخيّلته. بحث عنها بين القصائد.. في صوت العصافير.. في الغيم الأزرق.. في ملايين المفردات وتراكيب الجمل.. في النقاش العابث مع أصدقائه عن الحبّ والجنس والجسد. حتى في ذلك الحديث الصاخب عن لغة الجسد.. مع أنّه اقترب، يومها، لأن يعطي المثال عمّا كان يعنيه لكنّه لم يتمكّن تمامًا. وها هو اليوم يكتشف إمكانيّات الجسد المطلقة في مطلق الجسد الآخر، في دورة الحبّ الكاملة. منه

البداية وإليه النهاية، وها هو اليوم يكتشف أن لا لغة للجسد! لأنّ الجسد هو اللغة وهو الجسد أيضًا. تداعت أفكاره فتذكّر العبارة التي طالما سبّبت له الالتباس:

«الأرض تورث كاللغة».

ولكنّ الجسد لا يورث ولا الأرض. فكّر، وأحسّ أنّ محمود درويش أخطأ مرّتين حين قال عبارته هذه. فالجسد يُعاد خلقه في كلّ مرّة على هيئة جديدة، كذلك اللغة يُعاد خلقها لتعبر بنا إلى الآخر. هكذا تعلّم وليد تلك الليلة مع صديقة. وقاده تفكيره إلى أنّ الأرض لا تورث أيضًا. لأنّها ليست مكانًا يمكن امتلاكه إلى الأبد: «تمتلكها فقط، حين تعرف كيف تلد نفسك». الأرض تحتاج كالجسد إلى الخلق وإعادة الخلق، إلى أن تستحقّها وتصير لك. الأرض ليست ترابًا وحجارة وبيوتًا وسهولاً وبحارًا تشاطئها. الأرض روح، روح الإنسان الذي يسكنها. ما لم نُعِد خلقها لا يمكن أن تكون لنا. وهو هذه الليلة شعر أنّه لصديقة وأنّها له وأنّ فلسطين تقترب.

لم يسبق أن مارس الجنس بهذه الطريقة مع أحد، ولم يتوصّل إلى هذا المطلق في الحبّ. إلى هذه الأحاسيس الطالعة منذ بدء تشكّل الكون. كان مذهولاً بفرح من تداعيات اللحظة. لم يشعر بالسلام كما يشعر به الآن. لم يملك يقينًا واحدًا في حياته كما يملك الآن. أحسّ أنّه اكتشف الطريق. نظر إليها وقال: أنت ربّتي. أعدت تكويني وسوف لن أسجد إلاّ لك!

خجلت صديقة رغم فرحها بكلماته. فهي لا تعرف كيف تتكلّم هكذا أو تبادله الإطراء. كانت سعيدة وتشعر براحة بل بلحظة فريدة في حياتها. ألقت برأسها على كتفه وابتسمت. شعرت أنّها أجمل على نحو غير عادي. كان يكفي أن تنظر في عيني وليد لتعرف وتحسّ كم هي جميلة. كان يكفي ذلك الدفق من الحنان الذي ينبعث من صدره ومن حناياه كلّها. نسيت كلّ آلامها ومعاناتها هنا وهناك. نسيت وجه صبحي الدنيء صديق زوجها أحمد حين حاول التحرّش بها بعد أقلّ من شهر على استشهاده. نسيت رائحة البراز وأصوات المشاجرات اليوميّة، والصياح بسبب وبدون سبب، التي ظلّت تلاحقها حتى بعد أن هربت من المخيّم. نسيت وجه نوال الشيطاني وهي تساومها على بيع نفسها منذ أن حطّت قدميها في دبي. نسيت وجه ذلك السعودي الذي أحضر معه إلى الفندق سوطًا ليجلدها، لأنّها الطريقة الوحيدة التي يُستثار بها. وتبدّدت ذكرى تلك الليلة التي كانت تعاودها حين تضع رأسها على الوسادة وتتذكّر كيف هربت فيها شبه عارية إلاّ من عباءة وضعتها على جسدها المتورّم من السياط، وكيف مشت ساعتين حافية ولم تجد نفسها إلاّ في بيت نوال متورّمة القدمين. نسيت حتى نظرات الشماتة التي أطلّت من عيني نوال وكلّ المذلّة التي شعرت بها وهي تسير في ليل المدينة وحيدة باكية لا تجرؤ حتى على ركوب تاكسي، وخائفة من أن تجدها الشرطة فتضعها خلف قضبان الفضيحة والسجن. امّحى كلّ ذلك وكأنّه ما كان، وكأنّ صديقة وُلدت للتوّ بذاكرة بيضاء لم تختبر الألم قطّ.

لم تعرف أنّ هذه السعادة ممكنة وإن تخيّلتها وتمنّتها لسنوات وسنوات، وصارت تنسج في مخيّلتها أوضاعًا رومانسيّة تحلم أن تجرّبها، بعيدًا عن فجور الجسد وأهوائه الحيوانيّة. كانت تحلم أن تحبّ كإنسان، ولم يكن المخيّم، بغرفه الضيّقة وبيوته المتلاصقة، مكانًا مواتيًا لتجسيد أحلامها، فصارت تستحضر أحلامها في كلّ مرّة مارست فيها الجنس مع أحمد. لم تتوصّل مرّة إلى مطابقة تخيّلاتها على اجتماعاتها الحميميّة مع أحمد لأنّه كان دائمًا إمّا على عجل أو خائفًا من أن تفاجئهما أمّه، أو هي تعبة..

انتبهت لشرودها حين قبّلها وليد في جبينها ووجنتيها، وعاد وملأ وجهها قبلاً وهو يسأل: أين أنت؟

ابتسمت: هنا! وأشارت إلى صدره.

قرّبت شفتيها من شفتيه وقبّلته قبلة رقيقة طويلة، ثم نظرت إلى عينيه وتمنّت لو تدوم هذه اللحظة إلى آخر العمر. وكأنّه أحسّ بما تفكّر به فقال: لآخر العمر!

أمسك يدها ووقف في المغطس ورفعها، ثم أحضر المنشفة التي علّقتها على ماسورة المغطس ولفّ بها القسم الأعلى من جسدها، وأحضر أخرى لفّ بها جسده وحملها بين ذراعيه وقادها إلى غرفة النوم. وكالمصعوق وقف على عتبة الغرفة حتى كادت صديقة تقع من بين ذراعيه، وهو يصيح يا إلٰهي.. ما هذا؟

غرفة معتمة بدّدت عتمتها نجوم تتلألأ ثبّتتها صديقة في سقف الغرفة... وجلبت السماء أو صعدت إليها.. لا فرق!

جدار

وضعها على مهل على السرير وهو ينظر إلى سقف الغرفة المرصّعة بنجوم مضاءة متفاوتة الأحجام. كان سريرها ملتفًّا بالأبيض، على جانبيه طاولتان زجاجيّتان، وُضعت على إحداهما مجموعة من الكتب صُفّت بعضها فوق بعضها الآخر، وإلى جانبها زجاجة عطر وكريم لترطيب البشرة. على الطاولة الأخرى صورة لشابّ في السابعة عشرة من عمره، يشبهها إلى حدّ كبير. حين رأته صديقة ينظر إليها قالت: «حسام! ابني هاجر إلى الدنمارك وأرسلها لي منذ شهر».

عندها نظر وليد إلى السقف كمن يودّ أن يسأل. كانت صديقة حاضرة البديهة فأجابت من غير أن تنفعل: إنّها من زبونة فرنسيّة أحضرتها لي على سبيل الهديّة. وما إن تفوّهت بهذه الكلمات حتى شعرت بشيء يعقص قلبها. تكذب. ماذا تقول له. أتقول إنّها من فرنسي عاشرته لبعض الوقت أثناء غياب زوجته في إجازة. أتخبره أنّها أبدت إعجابها بالنجوم المعلّقة بسقف غرفة

نوم الزوجين، فأحضر لها بعد عودته من باريس سقفًا من النجوم مثله تمامًا. مع أنّه كان كريمًا معها اعتبرها هديّة تقدير للمتعة الفريدة التي منحتها صديقة له.

الكذبة فتحت على الفور جرحًا في روحها، وتنبّهت إلى لا مستقبل علاقة وُلدت للتوّ على شكل انفجار مباغت بعثرها فعادت إلى الواقع المرّ كمن هوى من مكان علٍ.

صديقة لم تكن معتادة على نظرات الاحترام تأتيها مقرونة بعاطفة تتفتّح. عبست وهي تفكّر وأطالت عبوسها، فقاطع وليد عبوسها واضعًا يده على فمها ليفرج عن ابتسامتها التي كانت للحظات خلت تأسره بسحرها.

ـ ماذا؟ ما بك؟

ابتسمت وقالت: لا شيء.

وتابعت شرودها. ارتبكت حين سألته إن كان يرغب بالمبيت عندها. ارتبكت لأنّها لم تدر من أين يصعد السؤال.

ـ إذا كان لا يضايقك.

يضايقها؟ فكّرت. هل هو أبله أم أنّه مهذّب فوق العادة. . .آه لو يعرف كم تاقت روحها أن تنظر إلى الوسادة قربها لترى وجه رجل يحبّها، يستلقي إلى جانبها. هي وهو وهذه السماء الشاسعة. سماء من الحبّ تنفتح في فضاء يمتدّ، يلفّه سكون تقاطعه دقّات قلبها وواقع لم تشعر بحجم مرارته كما تفعل الآن.

ـ طبعًا، طبعًا. قالتها بعفويّة ممزوجة ببعض التكلّف. لم تدر ما تقول سوى طبعًا. طبعًا. ما الذي يمنعه من المبيت أو يمنعني من إظهار الرغبة بمبيته. فكّرت. وعلى الفور، بدأت حسابات الربح والخسارة تحرّك الأنثى داخلها. لكنّها سرعان ما أدركت أنّها تبدّد بحساباتها سعادة محتملة تنتظرها. حين اتّصلت به لتدعوه إلى شقّتها، لم تفكّر بشيء أو توقّعت أن يحدث كلّ ما حدث أقلّه بهذه السرعة أو بهذا الشكل والعمق. لم تخطّط لما حدث، ولم يخطر ببالها أن تطارحه الغرام من أوّل لقاء. لم تجد نفسها إلاّ وهي تتّصل به مدفوعة بالرغبة في إقامة حديث أو علاقة إنسانيّة. شيء يقتلعها لبعض الوقت من وحشتها وصقيعها، والصمت الذي لا ينفكّ يتناسل في روحها مذ وطئت قدماها أرض المطار. الحوارات الوحيدة التي أجرتها مع نفسها لم تكن سوى اجترار لذكريات واصلت اقتحام حياتها لتزيد من ثقلها ومن إحساسها بالمرارة.

ـ لديك شقّة جميلة...

قال وليد عبارته واستلقى على السرير، واضعًا رأسه على الوسادة الطريّة العابقة بعطر صديقة. لم يكن معتادًا على هذه الرفاهيّة. لم يكن مستعدًّا لها حين أتى لصديقة. كلّ ما فكّر به حين رآها لأوّل مرّة في الكارفور أن يقبض على صورة هذا الوجه الملوّن بالجاذبيّة الذي لم يفارق فكره مذ رآه. ولكن حين سمعها تدعوه عبر الهاتف شعر بأنّه يحلّق على أجنحة صوتها، وأنّ ثمّة

وعدًا يتردّد فيه كألوان قوس قزح. أثارته نبرتها المغوية بعفويّتها. فأتى إليها من غير أن يفكّر. وها هو الآن يحاول أن يستوعب ما جرى، ولكنّه لا يقدر. بل يمضي في التجربة كما ينساب الماء في النهر.

استلقت صديقة بقربه بدورها ولم تعلّق. اقترب من وجهها. حدّق طويلاً في عينيها فاستسلمت لتحديقه من غير أن تفهم بِمَ يفكّر وإن حدست. وليد لم يكن يصدّق نفسه. اقترب أكثر وضمّها بين ذراعيه. دسّت رأسها في صدره واستسلمت لعناقه.. لم تدرك أنّها نامت بين ذراعيه طوال الليل إلاّ حين استيقظت في الصباح. حين فتحت عينيها رأته يحدّق بها:

ـ ألم تنم؟

ـ وهل هناك من يستطيع أن يغمض عينيه عن هذا الجمال؟

ضحك ثم: أنا أمزح. بلى نمت ولكنّي استيقظت منذ قليل..

انتبهت صديقة أنّها نامت والمنشفة تلفّ جسدها. ضحكت حين رأته ملتفًّا بالمنشفة أيضًا. لم يعلّق. ضحك لضحكتها فقاطعته: أتشرب القهوة؟

ـ أنت لا تشبعين من القهوة؟ لا تكتفين...؟

ـ لا. لا. هذه المرّة قهوة حقيقيّة! قاطعته.

ـ وهل قهوة البارحة لم تكن كذلك؟ ابتسم مشاكسًا.

ـ أنت قل لي. ابتسمت بدورها ابتسامة مشاكسة.

ـ أتعرفين. أشعر أنّي أعرفك من زمن بعيد. بالكاد التقينا وانظري إلى ما حدث؟

... لم تعلّق. بل نهضت من السرير، توجّهت إلى الخزانة وارتدت عباءة زهريّة ثم ناولته رداء للاستحمام أبيض اللون.

ـ هذا لك؟

ـ هو لك؟

ـ نعم ولكن قياسه كبير وأظنّ أنّه سيناسبك.

دخل وليد إلى الحمّام وخرج بعد دقائق ليجد القهوة بانتظاره. كانت لها رائحة مميّزة عن تلك القهوة التي يشربها في غرفته وحيدًا كلّ صباح. وحين بدأ يرتشفها كانت صديقة تنظر إليه نظرات متفحّصة، وحين رآها خفضت عينيها ونظرت إلى الأرض بخفر.

كانت سعيدة وخائفة في آن معًا. هي لم تمنح نفسها لأحد كما فعلت الليلة. حتى لقاؤها الأوّل مع أحمد لم يصل إلى هذا المطلق في التفتّح. هذا أوّل شيء جميل يحصل لها منذ سنوات طويلة تمتدّ إلى ما قبل أن تولد ربّما. شعرت أنّ حياتها على حافّة التغيّر، ولكنّها خافت. خافت من غير أن تدرك سرّ هذا الخوف.

تمنّت ألاّ يطول بقاؤه ويرحل سريعًا. كانت تحتاج لأن

تختلي بنفسها وتفكّر. وكأنّه شعر فسألها عن موعد ذهابها إلى الصالون. فأجابت: اليوم جمعة يفتح الصالون بعد الظهر، ولكن عليّ أن أخرج للتسوّق.

فهم وليد أنّ عليه ألاّ يطيل البقاء. كان هو الآخر بحاجة لأن يختلي بنفسه. لأن يبتعد قليلاً ويفكّر. ولكنّه فوجئ بارتباك صديقة وتذرّعها بالذهاب إلى السوق. من عادة النساء أن يتمسّكن به ويتشبّثن كي يبقى معهنّ لفترة أطول.

أحسّت بما يدور بخلده فقالت: اعذرني. أستمتع بالبقاء معك هذا الصباح. إنّه صباح جديد ولم يسبق لي أن فعلت شيئًا مماثلاً بعد وفاة زوجي. أنا مرتبكة قليلاً رغم أنّي سعيدة.

لم تكذب. كانت صادقة في كلماتها. فهي في قرارة نفسها كانت تتعامل مع البغاء كمهنة تعتاش منها. مهنة موقّتة فرضتها الظروف لا أكثر. أوجدت تبريرًا فكريًّا للموضوع كي تتمكّن من مواصلة حياتها دون تعقيدات نفسيّة كتلك التي عانتها في البداية وكادت أن تدفعها للانتحار. تمكّنت مع الوقت أن تتعامل بطريقة عمليّة مع بيع جسدها حين بنت مساحة من الخصوصيّة لنفسها وفصلت الأشياء. لذلك حين لمّحت له برغبتها بالخروج «أي برحيله» كانت تتصرّف على نحو عملي لا يجرحه ويُتيح لها الجلوس مع نفسها والتفكير بما حدث.

هو فهم وأجاب:

ـ لا بأس عليك. أفهم.

قال ذلك وهو يشعر بغصّة في حلقه جعلته يتوقّف عن الكلام للحظات. ثم تابع:

ـ عليّ أن أذهب أيضًا لإتمام مقال بدأته بالأمس. هيّا نرتدِ ثيابنا لأوصلك إلى السوق.

ـ لا. لديّ سيّارة.

ـ لديك سيّارة؟

سألها باستغراب إذ فاجأه أن تمتلك مصفّفة شعر سيّارة..

ـ نعم اشتريتها بالتقسيط. قالت.

وزادها الكذب ارتباكًا سرعان ما أخفته حين نهضت لتأخذ فناجين القهوة إلى المطبخ. فهمت استغراب وليد، ولكي تزيل شكوكه أضافت بصوت عال وهي في طريقها:

ـ أنا أكسب الكثير من عملي الإضافي في تصفيف الشعر في بيوتات سيّدات ثريّات.

إنّهنّ كريمات معي جدًّا.

فوجئت صديقة بسرعة بديهتها وقدرتها على لملمة ارتباكها، فهي لم تحسب حساب أسئلته قبل أن تتورّط معه. لم تتوقّع أو تخطّط أو تعتقد أنّ ما حدث سيحدث. جرى الأمر بسرعةٍ وها هي بمواجهة أسئلة لم تتحضّر لها.

ارتدى وليد ثيابه على عجل. ودّع صديقة بقبلة على جبينها ثم على شفتيها قائلاً:

ـ أتّصل بك في المساء. متى تنتهين من عملك؟

ـ في العاشرة مساء.

ـ لا بأس. سأنتظر عودتك. ربّما أتّصل في العاشرة والنصف أيناسبك ذلك؟

ـ نعم بالتأكيد. أجابت وهي غير متأكّدة فعلاً.

حين أقفلت الباب وراءه أسرعت إلى السرير. استلقت وأطلقت العنان لنفسها لتفكّر في ما حدث. مضت ساعتان وهي على هذه الحال. أدركت خلالها أنّها ستضطرّ لاختلاق القصص والكذب إن هي استمرّت في علاقتها مع وليد. قلقت أكثر حين فكّرت ألاّ تستمرّ معه. شعرت أنّ ريحًا عاتية توشك أن تهبّ وتجتاح حياتها وتقلقلها. لم تكن متأكّدة أنّها قادرة على لجمها. أربكتها الحاجة للملمة أشلائها المبعثرة مذ احترفت بيع جسدها لمن يدفع أكثر. ربّما أزفت اللحظة وآن لها أن توقف هذا النزف الذي يمتصّها. فكّرت. لكن كيف؟ تساءلت والخوف من الغد يبلبلها حتى إنّها لم تردّ على الهاتف المتحرّك، نظرت إليه فقط. إنّه جاسم مجدّدًا. ما الذي ذكّره بي؟ لم تمض عشر دقائق حتى اتّصلت بها نوال: نوال! ما بها هي الأخرى. ما الذي ذكّرها بي؟ وما إن بدأت تربط ما بين اتّصالها واتّصال جاسم رنّ الهاتف مجدّدًا. إنّه جاسم مرّة أخرى. فكّرت بالردّ إرضاء لفضولها ولكن في آخر لحظة توقّفت وأشاحته عن عقلها كمن يشيح بعوضة تزعجه.

في ذلك اليوم لم تستطع صديقة أن تمحو من ذكريات الليلة الفائتة مع وليد كذبها أو لجوءها للكذب. امتزج الفرح في داخلها بالحيرة والخوف وإحساس عميق بالخزي. فكرة واحدة سيطرت على عقلها دفعتها للتفكير جدِّيًا هذه المرّة في طريقة للخروج من نفق مهنتها. وزادها اتّصال جاسم ونوال إلحاحًا. لكنّها لم تعرف كيف. فكّرت في العودة إلى لبنان؟ إلى أين؟ إلى المخيّم مجدّدًا؟ لا. لا. فكّرت. الدنمارك؟ ماذا أفعل هناك؟ ليس لديّ غير حسام. وماذا أفعل بأولادي الباقين؟ ماذا أفعل بنفسي؟ أعيش عالة على ابني أم على معونات الحكومة الدنماركيّة؟ والمبلغ الذي جمعته لا يكفي للبدء حتى بمشروع صغير هناك. ربّما في لبنان.. لا. ربّما هنا في دبي حيث لن يسألني أحد عن شيء. نعم أفضّل أن أبدأ هنا، فالبداية هنا ممكنة، شرط ألاّ أضطرّ للاحتكاك بالرجال. عمل يبعدني عن كلّ من عرفتهم هنا منذ مجيئي. فكّرت وفكّرت وظلّت تفكّر وتدور حول نفسها. لكنّ دورانها هذه المرّة لم يكن يطحنها بل يبعث في نفسها الأمل من جديد. الأمل الذي انتظرته طويلاً ولم يأت...

لم تأكل شيئًا ذلك اليوم. استمرّت في تناول فناجين القهوة، محاولة إلهاء نفسها بالتلفاز. سرعان ما مرّ الوقت ورنّ الهاتف في العاشرة والربع تمامًا. وما هي إلاّ عشر دقائق حتى كان وليد واقفًا أمامها واللهفة في عينيه. قبّلها. قبّلها طويلاً. هي بقيت صامتة تتلقّى قبلاته ونظراته من غير أن تحرّك ساكنًا فيما ضجيج

قلبها يزعزع كلّ كيانها. استغرب وسألها: ما بكِ؟

ـ لا شيء. أفكّر.

ـ لكنّك ترتجفين! بِمَ تفكّرين؟

ـ بنا.

ـ لا تستعجلي الأمور.

ـ بلى أنا بحاجة لأن أتّخذ بعض القرارات.

ـ من أيّ نوع؟ إذا قصدت الزواج...؟

ـ لا. لا. قاطعته. ليس هذا ما أفكّر به.

لم يفهم وليد، ونهض إلى المطبخ فسألته إلى أين؟

سأعدّ قهوة لنا. ومن غير أن ينتظر ردّة فعلها مضى إلى المطبخ.

حين عاد كانت صديقة غرقى بالدموع، تحمل بين يديها ملحق جريدة أحضره وليد مع بعض الكتب. كانت تحمله وتبكي. وضع وليد الفناجين على عجل. ضمّها إلى صدره وأخذ يمسح دموعها وهو متفاجئ وخائف: ما بك؟ لماذا تبكين؟ فواصلت البكاء.

نظر إلى الملحق فوجد تحقيقًا يتحدّث عن أوضاع الفلسطينيّين في لبنان بعد مرور خمسين عامًا على النكبة. ظنّ أنّه فهم. ظنّ أنّ صديقة متأثّرة للظروف الصعبة التي يعيشونها هناك.

هي كانت كذلك، ولكنّها كانت تبكي فاطمة التي ذكر التحقيق أنّها تقضي حاجتها في الكيس بعد أن هدموا مرحاض النساء العمومي في المخيّم.

عادت وتناولت الملحق من يده لتقرأ مجدّدًا. فاطمة أمّ أحمد. أمّ الشهداء صارت تقضي حاجتها في الكيس. ليش؟ شو صار؟ فكّرت والهلع يعصرها.

كانت صديقة ترسل لها القليل من المال عبر سلمى كي لا يشكّ أحد بها لو أرسلت أكثر. لن يصدّق أحد أنّ مصفّفة شعر بإمكانها إرسال الكثير، لذا لم تفعل وفضّلت أن تدّخر المال كي تؤسّس لمستقبل ما لم تحدّده سلفًا. لكنّها لم تكن تعرف أنّ فاطمة صارت تتريّض بالكيس بعد رحيل صديقة بسنتين. لماذا لم تقل لي سلمى؟ لماذا؟ صارت الأسئلة تلاحقها كسياط تلسعها، وتنهال عليها الأفكار كشلاّل هادر ينحدر من عينيها على هيئة دموع غزيرة.

ارتبك وليد ولم يدر ما يفعل. ساعة مضت وصديقة تمطر بالدموع. ترتجف بين ذراعيه وهو صامت. يشلّه بكاؤها ويشعره بالعجز. إحساسها المثقل بالذنب جعلها تنكفئ على نفسها وتعود إلى قوقعتها المعتادة. شعر وليد أنّه خارج عالمها. قطّب جبينه وصمت. لم يعد يدري ما يفعل. يحاول أن يقترب منها فتزداد انكماشًا. وقف يهمّ أن يرحل فترنّح وكاد أن يسقط على الأرض لو لم تسارع صديقة للإمساك بيده. ترنّحا معًا ووقعا على حافّة

الأريكة، وعادت الدموع تنهمر غزيرة من عينيها وتبلّل وجه وليد. عانقها هو الآخر وبكى، صار كلّما يشتدّ بكاؤه يشتدّ التباسه ويشدّها إليه ويعصرها. فهم ولم يفهم. هي فهمت وتذكّرت يوم بكى أحمد على كتفها حين استشهد راسم في حقل الألغام. كان قد زرع الألغام بنفسه. حاصرت الألغام راسم وهو يسير في دوريّة استطلاع حول قلعة الشقيف قبل بدء الاجتياح الإسرائيلي بأسبوعين. حاصرته الألغام لأنّ أحمد لم يضع إشارة تحذير أمام الحقل. كانت الخطّة أن يضلّلوا العدوّ. أن يعيقوا تحرّكه. ضلّ راسم واستشهد وأحسّ أحمد بالذنب.

لم يمض أسبوع على استشهاد راسم حين استشهد أحمد في النبطيّة. لم يعرف أحد من أين أتت القذيفة التي مزّقت جسده. كانت النبطيّة في تلك الأيّام ترزح تحت نيران الاشتباكات الداخليّة والقصف الإسرائيلي. رغم البرودة التي خيّمت في السنوات الأخيرة على علاقتها بأحمد، عانقته يومها وبكت لبكائه. فهم وليد بكاءها ولم يفهمه. هي فهمت مع أنّها كانت دائمًا تردّد لو أنّها لا تفهم. ومع أنّ وليد هو من بدأ يهدّئها، انقلب الوضع ووجدت نفسها تطبطب عليه وتحبّه أكثر.

رنّ هاتفها فجأة. جاسم مجدّدًا. عرفته من الرقم. كانت ما تزال تذكره رغم مرور أربع سنوات. لم تجب. وظلّ يعاود الاتّصال ممّا جعل وليد يمسح دموعه ويتوقّف عن البكاء وينظر إليها ويقول لها بصوت خفيض متسائلاً: لماذا لا تجيبين؟

ـ لا أريد. لا أحد مهمًّا.

انكفأ وليد على نفسه ورحلت نظراته إلى مكان قصيّ يتردّد فيه صدى لقصيدة تتداعى في عقله من وحي اللحظة الكثيفة. أحسّ لأوّل مرّة أنّ ثمّة من يشاركه الألم العميق الذي يكبّل روحه مذ تكسّرت آماله في أيّ انفراج يخفّف من ثقل النكبة على شعبه. شعر أنّ ثمّة من يفهم. لكن صديقة ظنّت أنّ وليد ابتعد قليلاً. ربّما شعر بالعجز عن القيام بشيء يخفّف حزنها. فكّرت. لكنّها لم تعره كثير الاهتمام لأنّ حزنها على ما آلت إليه أمور فاطمة كان أقوى من قدرتها على التفكير في أيّ شيء آخر. وعوض أن تواصل مواساته ويواصل مواساتها قامت صديقة وجلست على الأريكة الأخرى. ضمّت جسدها إلى بعضه وتقوقعت وعادت إلى عالمها وحيدة مشتّتة ما بين أوزو ودبي. ما بين فاطمة وصديقة أو ما بين غريبتين في عالم غريب وبارد. ماذا بعد؟ تساءلت وهي تحسّ بذنب حيال فاطمة والأولاد.. وتشفق على أحمد من إحساس اليأس الذي تلبّسه في الأشهر الأخيرة التي سبقت استشهاده. انهار مشروعه للعودة وابتعدت فلسطين عن متناوله.

وها هي الليلة تواجه يأسًا أكثر عمقًا انبنى على يأس أحمد وينازعها على أبسط أمنياتها في أن تستعيد إنسانيّتها. كأنّما الحضور المفاجئ لوليد في حياتها جاء ليعيدها إليه...

رنّ هاتفها الجوّال مجدّدًا وظهر رقم جاسم.

لم يسألها وليد أن تردّ بل تابع انكفاءه هو الآخر. كلّ على حدة انغمس في أحزانه. هو في البحث عن بديل لليأس بلغة الشعر. هي في حزنها على فاطمة وفي بحثها عن مخرج يمكّنها من تبديد هذا الحزن كي تتمكّن من وقف شعورها العارم بالخزي. ليس خزيها وحدها بل خزي يغلق على أعناق الجميع وصلواتهم لا يجدون فكاكًا منه غير إدمان الخزي والعيش فيه.

* * *

صار أبو عليّ مثل الممسوس، يتحرّك ويتنفّس ويأكل ويتغوّط وينام ويستيقظ من أجلها وبها ومنها وفيها. احتلّت فاطمة المساحة في داخله ومن حوله حتى كادت المسافة إليها أن تمّحي. صار بالكاد يتحرّك من الزاروب وإن فعل فإلى المرحاض. لم ينتبه أحد للتغيّر الذي طرأ عليه إلاّ فاطمة، وكانت بطريقة ما سعيدة وخائفة. خائفة من الهدير الذي ينهنه روحها ويدفعها لارتياد المرحاض، حتى لو لم تكن تفعل لقضاء حاجتها. حتى لو لم يكن هو على الطرف الآخر من الجدار. حتى لو كان ثمّة شخص آخر ما زال يتنصّت ويهجس بصاحبة الصوت الأثيري ويتردّد على المرحاض في أوقات مختلفة، علّه يستطيع أن يتملّى بآهاتها. بصوتها. أن يتحرّر فيه ويحلّق مجدّدًا في فضاء الرغبة حتى لو كانت مكتومة. أوشك ركاد بعد وقت أن يظنّ أنّ صاحبة الصوت الأثيري هي من نسج خياله.

اختفى الصوت الذي ظلّ يعاود أذني ركاد عبر ثقوب جدار المرحاض، ويتسلّل إلى حياته المليئة بالثقوب. شهران وكأنّه على موعد معها. كانت كالساعة لا تخطئ أبدًا. تسبقها خطواتها المتثاقلة، ورائحة رغبة نائمة أدركتها ريح قديمة بعثرت نومها. وأيقظت في ملامح وجهه النور. ما كانت لتخطئ بموعد قدومها. ما بالها؟ أتراها رحلت عن المخيّم؟

تساءل ركاد.. ولم يخطر في باله أنّ ثمّة من سرق منه الصوت الأثيري. لم يخطر في بال أحد في الزاروب أنّ فاطمة لم تعد تلك الساذجة التي عرفوها.

صارت فاطمة تتردّد إلى المرحاض في أوقات غير منتظمة. نهارًا وليلاً، وكلّما سنحت لها التفاصيل أن تفعل. تتعمّد أن تثير من حولها غبارًا لا يسمح لأيّ كان بالشكّ بنواياها الماكرة. فقط أبو عليّ فهم وتبع خطواتها خطوة خطوة.

ركاد اتّبع التكتيك ذاته ليبحث عنها داخل الوقت. وفي نهارات المخيّم وضوضائه الرتيبة. يلعب بالوقت علّ المصادفة تتكرّر ويستعيد هذيان الرغبة في داخله. لم يعد يعرف متى تأتي، فصار يغيّر توقيت ذهابه إلى المرحاض. كثيرًا ما التقى أبو عليّ ركاد في المخيّم. أبو عليّ كان يعرف سرّ تردّد ركاد على المخيّم وارتباكه، لكنّه استغبى كي لا يفضح أمر فاطمة وأمره أو أمرهما معًا. كان أبو عليّ متأكّدًا أنّ ركاد سمع صدفة تأوّهات فاطمة. مثله تمامًا، لكنّه لم يعرف من هي. لم يعرف لأنّه لم يجرؤ أو يحاول أن يعرف.

وهذا ما كان يطمئن أبو عليّ كلّما رأى ركاد حائرًا. يأتي ويذهب حائرًا. رغم سماكة القناع الذي أحاط وجه ركاد، كان أبو عليّ ذكي القلب ليرى النتانة التي تعشّش خلفه وتجعله أغبى من أن يدرك ما يدور حوله، وإلاّ كان على فاطمة أن تعرف بوجوده. كان يدرك أيضًا أنّ طبيعة فاطمة وسذاجتها لم تكن لتسمح لها أن تفكّر أنّ ثمّة آخر سمعها وتنصّت على تأوّهاتها. لأنّه هو، هو أبو عليّ قطع على أيّ أحد آخر الطريق. لكنّ فاطمة لم تفكّر على هذا النحو، فهي لم تكن تعرف أنّها تتأوّه أو أنّ هذه الأصوات التي تنبغث منها حين تبدأ بتحسّس ثدييها قد تُثير فضول أحد، أو شهوته. فقط عرفت حين تأوّه أبو عليّ مثلها يوم باغتها ودخل المرحاض وراءها وأقفل الباب خلفه بعدما ملّ من الاكتفاء من رجع صدى تأوّهاتها داخل جسده. لم تعرف إلاّ حين بدأ جسده الساخن يرتعش وينتفض بالشهوة والتأوّه. لم تعرف يومها إن كانت هي قد استسلمت كتمًا للفضيحة أم لأنفاسه الحارّة المتلاحقة وتأوّهاته الخافتة وهي تتسارع على وقع رغبة تتكاثف وتتّسع وتحطّم جدران المرحاض الضيّق. وذاك العضو الذي ما انفكّ يكتم أنفاسها ويبدّد روحها طوال سني عمرها، حين كان خليل يدحشه في عضوها، صار الآن مع أبو عليّ أشبه بحمامة تحملها على أجنحة الشهوة وتلقي بها في فضاء أبيض مضيء كأوّل شيء يعلق في عيني وليد خرج إلى العالم للتوّ.

* * *

وحدها أمّ فيصل بدأت تلاحظ الاسترخاء على قسمات وجه فاطمة، وترى في عينيها بريقًا جديدًا فتتساءل، ثم لا تلبث أن تنسى السؤال. تكرّرت لقاءات أبو عليّ وفاطمة في المرحاض، ولكن مع الوقت فقدا حسّ الحرص، واستسلما للاسترخاء الذي ولّدته علاقة حبّ بدأت تتفتّح من جسد فاطمة وتنثر أريجها حول المرحاض وفي داخله. لم تعد تستطيع مقاومة الجنون الذي يستبدّ بها كلّما تلاقت عيناها بعيني أبو عليّ. وحين فعلا ذات مرّة أمسكتهما أمّ فيصل صدفة داخل الزاروب وهي تقف أمام بيتها. تصنّعت أنّها لم ترهما. أمّ فيصل كانت امرأة فاضلة وتخاف ربّها إلى درجة أنّها عُرفت بجملة اعتُبرت لازمة التصقت بشفتيها. كانت تردّ على أيّة نميمة تصل إلى أذنيها: إنّ بعض الظنّ إثم.

يومها حين رأتهما والهيام في عينيهما غضّت فكرها وقالت لنفسها: إنّ بعض الظنّ إثم.

* * *

لا أحد يدري لِمَ جُنّ جنون ركاد تلك الليلة وأتى بمطرقة كبيرة، وبغضب يقدح شررًا انهال على باب المرحاض العمومي للنساء. تارة يرفسه برجله وأخرى يضربه بالمطرقة حتى انخلع من مكانه وتطايرت أشلاؤه إلى الداخل والخارج، وتناثرت لحظة سقوطه داخل المرحاض فضلات صغيرة متجمّعة هنا وهناك بعد نهار مثقل بالغائط والتفاصيل الرتيبة لأمعاء سكّان المخيّم الغليظة.

جُنّ جنونه حين وقعت نثرة براز على خدّه الأيمن، فمسحها بطرف كمّه وأكمل بمطرقته على الجدران يهوي ويسبّ ويشتم ويكرّر: مخيّم تعريص. مخيّم لمم. عرصات. . .

تحوّل فمه إلى فوهة رشاش يلعلع بالشتائم. تجمّع أهل الحارة عليه وهم مشدوهون. كانت فاطمة في تلك اللحظة تشاهد مسلسلاً مصريًّا (أين قلبي) ليسرا ومحمود قابيل. في تلك الأثناء كان أبو عليّ يغطّ في نوم عميق فلم يدر بما يحدث في الخارج. كان الوقت وقت سحور. لذلك، اعتقدت أمّ فيصل أنّ الأصوات التي تسمعها هي صدى لضربات الطبّال وإن لم تسمع عبارته المعهودة: يا نايم وحّد الدايم. فاطمة سمعت صوت المطرقة ولكنّها كانت مأخوذة بأحداث المسلسل فلم تكلّف نفسها حتى عناء التساؤل.

ازداد صوت الهدم حدّة وعنفًا، وظنّ البعض أنّ ثمّة اشتباكات. بعضهم خرج ليرى والبعض تكاسل بعدما صارت المشاجرات والاشتباكات تفصيلاً يوميًّا رتيبًا في حياة المخيّم. لكن حين تهدّج صوت ركاد بالغضب وصار يطرطش الشتائم يمينًا وشمالاً، هرع الناس ولم يفهموا. لم يفهموا سرّ غضب ركاد. انتبهت فاطمة حين همّت أمّ فيصل أن تفتح الباب لترى لماذا يتراكض الناس في الزواريب، وحاولت أن تفعل الشيء نفسه لكنّ البثّ على القناة الفضائيّة قطع المسلسل لينبئ بخبر عاجل.

توقّفتا كلتاهما لتريا الخبر عساه يكون عن عمليّة فدائيّة في فلسطين، كما جرت العادة أن تزداد العمليّات الاستشهاديّة في رمضان.

لكنّه لم يكن كذلك. تحدّثت المحطّة عن سقوط المكّوك الأميركي العائد من رحلة فضائيّة. اهتاج قلب فاطمة وصرخت: عمر.. وأعلنت المحطّة عن وفاة روّاد الفضاء الذين كانوا على متنه عندما ارتطم بالأرض وكان ثمّة عالم يهودي على متن المركبة. لم تصرخ بسبب سقوط المكّوك أو العالم اليهودي، بل لأنّ سقوطه وقع في ولاية تكساس الأميركيّة وفي بلدة تُدعى فلسطين. حين سمعت فلسطين صرخت... عمر. وحين صرخت.. عمر.. فهمت أمّ فيصل وبدأت تهدّئ من روعها. هي الأخرى ظنّت أنّه عمر، وإلاّ لماذا يسقط مكّوك عائد إلى الأرض في بلدة تُدعى فلسطين. لا بدّ أنّه عمر. أليس هو من اتّبع الوصيّة. ألم يخبرها ابنها فيصل أنّ عمر يدرس في أميركا رائد فضاء!

وجدت أمّ فيصل نفسها تنجرف وراء هواجس فاطمة التي أخذت تردّد: فلسطين هون يا عمر. فلسطين هون. وين رايح تفتّش عنها.

تردّد.. فلسطين، وتضرب بيدها موضع القلب. وتلطم خدّيها ثم ما تلبث أن تخبط رأسها بأرض الغرفة. لم تعرف أمّ فيصل كيف بدأت تتفوّه بكلام لطالما أحسّت بخوائه وتردّد:

تقوّي بالله يا فاطمة. عمر شهيد. عمر شهيد. يجب أن تفتخري به.

لأ. لأ. لأ. صرخت فاطمة بكلّ ما أمكن للصوت أن يصرخ. ما تقولي شهيد. لأ. عمر مش شهيد. عمر ضاع وضيّعني معو. بدّو يطلع عالقمر يطلع بسّ يستشهد لأ. بكفّييييييييييييييييييييييييييييييي.

لأ. لأ. ليس شهيدًا. عادت تردّد. تعبت. تعبت، تعبت.. بينما اقتحمت ذاكرتها صور «الثوّار» الذين يركبون سيّارات فارهة ويسكنون شققهم الفخمة التي صارت تعمل فيها خادمة من حين لآخر.

نظرت إلى جارتها وتابعت وهي تلطم خدّيها: كيف بدها ترجع فلسطين ولك يا أمّ فيصل.. بيبعتوا ولادنا عالحرب وهنّي بيسكنوا بشقق وقصور وبيركبوا سيّارات آخر موديل.. وبسفّروا نسوانن يتسوّقوا بباريس ولندن وبينزلوا بفنادق خمس نجوم. ابني أحمد كان يحكي لصديقة وكنت أسمعه. كان شايف بسّ ما كان يحكي. كان يراهن على كم واحد آدمي. بسّ شو. ماتوا الأوادم وتركونا لزعران الثورة والحراميّة. ما بيلحق واحد يصير مسؤول حتى يعبّي جيابو. اللّي ما حدا فكّر فينا. أحسن شبابنا يا استشهدت يا فسدت. واللي تعلّموا وظبّطوا حالهم هيهم بالخليج وبأميركا وغيرها ولا بيسألوا على حدا. كلّ واحد يا ربّي نفسي والشاطر بشطارته. ولادي كلّهم راحوا. حتى كنّتي هربت وتركت

ولادها أكوام لحم. ما تقولي شهيد قولي ضحكوا عليه. وضحكوا علينا والآتي أعظم..

ما بين الجملة والجملة صارت تلطم خدودها وتتفوّه بكلمات بذيئة لم تعهد أمّ فيصل أن تسمعها تخرج من فم فاطمة من قبل.

في تلك الليلة انحلّ شيء لم يعد بالإمكان لملمته في حياة فاطمة. على الضفّة الأخرى من المرارة هربت صديقة ليلتها من أحد الفنادق عارية إلاّ من عباءة ارتدتها على عجل حين هربت من السياط التي ألهبت جسدها. لم تتحمّل ساديّة الزبون السعودي لا سيّما أنّ الكيل طفح بها ولم تعد قادرة على مجاراة نزوات الزبائن المريضة. عادت إلى نوال مذلولة كي تختبئ من غضبه، لكنّ الشماتة التي أبدتها جعلتها تلجأ لصديقة إماراتيّة كانت تذهب إلى بيتها وتصفّف لها شعرها من حين لآخر. حافظت صديقة على علاقتها بها لتحميها فيما لو تعرّضت لمكروه. كانت السيّدة فاضلة فلم تسألها. ساعدتها على إيجاد شقّة وسدّدت عنها الدفعة الأولى، وأهدتها طقم صالون أصرّت أن تختاره صديقة بنفسها. وحين فعلت، كان وليد الشخص الأوّل والأخير الذي جلس عليه. لم يدخل شقّتها سواه. لا رجل ولا امرأة إلاّ عمّال الصيانة من حين لآخر، يأتون حين يتعطّل شيء ما، يصلحونه ويذهبون. يأتون ويذهبون ولا ينبض في عيونهم سوى التباس الحياة الذي أتى بهم من برد متاهة

أخرى لم تعرف صديقة زواريبها، لكن أحسّت ببرودتها وصمتت.

خرج وليد ولم يعد. لم يسع للاتّصال بها مجدّدًا ليسألها عمّا حدث من بكاء. لم يجرؤ أن يجازف بالسؤال. خرج حاملاً على وجهه ملامح قاتمة وأغلق الباب وراءه، فيما صديقة لم تودّعه إلى الباب. بل ظلّت ساهمة في صفحات الملحق والدموع تنسكب على وجهها. تعيد قراءة ما انكتب عن فاطمة وكيف انتهت إلى أن تفعلها في الكيس. تحاول أن تفهم ما حدث. لكن لا. لم. وربّما لن.

فاطمة بدورها لم تفهم حين دُقّ باب أمّ فيصل ودخلت أمّ عاطف الجارة الأخرى لتقطع صراخ فاطمة ونحيبها قائلة بصوت يتحشرج باللهاث: هدموا المرحاض! هدموا المرحاض!

هدّأت أمّ فيصل من روع الجارة وسألتها: ماذذذذا؟ ماذا تقولين؟

فردّدت مستنكرة بصوت عال: يا ويلي علينا. هدّوا بيت الخارج. وين نروح؟ وين نعملها؟ يا غلبي!! وامتدّت كلمتها الأخيرة إلى مساحة النحيب في صوت فاطمة فتوقّفت لتصيخ السمع لما تقوله أمّ عاطف والتأكّد إن كان ما سمعته صحيحًا. كانت ضربات المطرقة ما تزال تصدر دويًا دفع بها بأن تلحق بأمّ فيصل ثم تبعتهما أمّ عاطف وهي تواصل لطم وجهها والنحيب.

الليل قاتم. وحده الشرر المتطاير من عيني ركاد يضيء المكان. ما بين المطرقة تهوي وترتفع، وقفت فاطمة لتشهد الفضيحة تنفجر. لا يهمّ من انكشف أو من بقي مستورًا، فالليل الحالك لم يعد يقوى على كتمان سواده. وفاطمة لم تعد قادرة على مواصلة التسلّل وسط خيوطه كظلال من نور خفي يتشظّى.

أتت اللحظة التي خشيت منها طوال أشهر. لكنّها لم تدر إن جاءت لتغلق الحياة أو تفتحها. فرغم انهيار عالمها، بدا وكأنّ شيئًا ما بداخلها تفتّح أو انزاح عن كاهلها ليمنحها فرصة أن تُعيد ترتيب حياتها بعيدًا عن المرحاض وشؤونه. نسيت المركبة الفضائيّة التي هوت. نسيت عمر وكلمات المواساة من فم أمّ فيصل التي كانت ترتطم بأذنيها كالجليد للحظات خلت. أسرها المشهد ووقفت كالبلهاء تبتسم فيما دموعها ما تزال تنهمر وتعيدها إلى يوم وقفت خلف ستارة المرحاض تستمع لشهقات أحمد وهو يبكي أخاه الشهيد.

لا أحد يعرف لِمَ ابتسمت أو بكت. وحدها كانت قادرة أن تفعل. أن تبكي وتبتسم في آن، بينما الحشد من حولها يقف كالمذهول بعيدًا عن ركاد وعوائه المسعور والخراء المتطاير تحت وابل ضربات مطرقته ولا ينفك يردّد: مخيّم لمم. مخيّم تعريص ومخدّرات. النسوان أصل البلا. ويزداد جنونًا وهياجًا فيما الناس يزدادون حيرة وذهولاً والمرحاض العمومي للنساء يتهاوى تحت وابل المطرقة.

شعرت فاطمة بالشفقة عليه وإن لم تفهم لِمَ فقد صوابه وهو الذي كان البارحة يتهادى في الزاروب كالطاووس ويصرخ بالصغار، كعادته، أن يذهبوا إلى بيوتهم!

أحد لم يعرف لِمَ هدم ركاد المرحاض، وإن تهامسوا وهم يشاهدونه يفعل. وحدها فاطمة فهمت وابتسمت!

وحدها وقفت لتشاهد خاتمة غريبة تضع حدًّا لمجازفاتها اليوميّة في المرحاض.

بالمقابل، لن تعود قادرة بعد اليوم أن تختلي بنفسها في المرحاض، وكأنّ ثمّة صفّارة أُطلقت لتعلن انتهاء المرح.

كأنّها في لحظة تشكّل جديدة عند الحدّ الفاصل ما بين الولادة والموت.

فقط شريط يمتدّ من بين أصابعها ليلامس الرسالة التي خبّأتها في صدرها التي وصلتها في الصباح من حفيدها حسام. تحسّستها لتتأكّد أنّها ما زالت في مكانها وابتسمت مرّة أخرى، لكنّ ابتسامتها تلوّنت بالحزن حين امتدّت أصابعها لتحسّس المفتاح الذي خبّأته في صدرها أيضًا، وقرّرت أن تمنحه لحسام ليحتفظ به.

من يدري ربّما يجد الحيلة يومًا لتفقّد البيت في صفد. ربّما يجد طريقه ويبرع حيث فشل والده وأعمامه والجميع. فكّرت وعادت تتحسّس الرسالة.

ستفعل ما طلبه منها وتبدأ في تحضير أوراق السفر. لا يهمّ كم ستأخذ من الوقت حتى تجهز، فهي أمضت حياتها تنتظر المزيد من الانتظار ولن يضيرها القليل منه.

سنة وتسعة أشهر مضت حين رحلت فاطمة لتلحق بأحفادها الذين هاجروا إلى الدنمارك واحدًا تلو الآخر، وتبعتهم صديقة بعد أن جمعت مبلغًا من المال يقيها وأولادها شرّ العوز. استقرّوا جميعًا في إحدى ضواحي كوبنهاجن إلى حين حصولهم على الجنسيّة، ما لبثوا أن أرسلوا تذكرة الطائرة التي حملت فاطمة إليهم.

هي وهم وفاطمة كسروا جدران المتاهة ورحلوا إلى غير رجعة، لينخرطوا في متاهة جديدة يبلّلها الصقيع ويئدون فيها حطب الضياع. أسّسوا شركة تعهّدات لبناء المراحيض وصيانتها، وواصلوا حياة مستعارة تحوّلت مع الوقت إلى ما يشبه الغياب. زرعوا شجرة تين في فناء المنزل الذي اشترته صديقة بما ادّخرته من عمل الدعارة ومركز التجميل الذي افتتحته بعد شهرين من رحيل وليد، وحين قرّرت الالتحاق بأولادها.

حملت فاطمة غرسة التين الصغيرة هديّة لصديقة التي كانت تعشق التين. زرعتها قرب باب الحديقة وحرصت أن تغطّيها بالنايلون وتدفّئها بضوء خافت وضعته عند أسفل جذعها لتحميها من الثلوج المتراكمة في فصل الشتاء الطويل. مع الوقت تحوّلت شجرة التين إلى فاصلة بين متاهتين حين تعبر من أمامها صديقة

تغلق عينيها وتترك للهواء الثلجي أن يصفق وجهها ويمحو كلّ ما علق فيها من ملامح الذكريات.

شحّ نظر فاطمة أكثر فأكثر فيما أذناها ظلّتا تطنّان من حين لآخر بكلمات ركاد: مخيّم لمم! مخيّم عرصات! مخيّم لمم! لمم! لم! النسوان أصل البلا..

تسترجع كلماته وتبتسم!

صديقة تابعت إغلاق عينيها على الحكاية لا تريد أن ترويها، ولا تستطيع نسيانها، ولا تقوى على تذكّرها.

الفهرس

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

بطلة رواية «حليب التين» «صديقة» الجميلة، زوجة المناضل أحمد. يُستشهد أحمد، وتعيش هي بعده في المخيّم تسترجع علاقتها معه: بدأتْ عشقًا وانتهت حرمانًا يتمثّل في انفصال روحها عن جسدها، وفي تحوّل علاقةِ الحبّ إلى إفراغ غريزي.

تترك «صديقة» المخيّم، تهرب، تسافر، تقع في شرك...

رواية تربط بين الجسد والحبّ وحضور الذات في الحياة الواقعيّة، حياة الشتات وفقدانٍ للبلد، للولد، للزوج، للذات...

سامية عيسى كاتبة وإعلاميّة فلسطينيّة، عملتْ في جريدتي «السفير» و«النهار»، وناشطة في مجال حقوق المرأة. تعمل حاليًّا منتجة برامج في تلفزيون دبي.



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت



ISBN: 978-9953-89-158-3